رواية



بوح الأســـــــــــرار

رواية : محمد جبريــــــل

إلى محمـــد فــودة

" وانقضت السنة بحوادثها التى قصصت بعضها ، إذ لايمكن استيفاؤها للتباعد عن مباشرة الأمور ، وعدم تحققها على الصحة ، وتحريف النقلة ، وزيادتهم ونقصهم فى الرواية ، فلا أكتب حادثة حتى أتحقق من صحتها بالتواتر والاستشهاد "

الجبرتى

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حمد الله ، والصلاة والسلام على أشرف أنبيائه وأعز رسله ..

هذه سيرة ولى الله فرج خليل ، الشهير بابن شفيقة ، منذ ميلاده إلى مابعد الممات . طفولته ، ونشأته ، وكهولته ، وشيخوخته التى مات قبل أن يخطو فيها . حصلت عليها من رواة متعددين ، اتفقوا ، واختلفوا ، باتفاق نظرتهم إلى الرجل ، واختلافهم فيها . عمدة قرية السمارة سليمان عبد الواحد ، ومأمور مركز السنبلاوين ــ آنذاك ــ البكباشى عبد اللطيف الدمياطى ، وصبحى طعيمة صاحب القهوة بالسمارة ، وعم طلخاوى البقال بالقرية ، وعبد اللطيف صفراتة التاجر بالسنبلاوين ، والشيخ التهامى رزق ، وبشير النحاس وشحاتة عز الرجال وآدم وزة ، الذين شاركوا فرج خليل فيما فعل ،

ورجال ونساء من قرية السمارة ، والقرى المحيطة بها ، عاشوا فى زمن فرج خليل ، وتعرفوا إليه ، وتعاملوا معه .. أوردت كل الروايات ، مااتفق منها ، وماالختلف . لم يشغلنى انسجامها ، بقدر ما حرصت أن أنقلها. استدعيتها بالتذكر ، فأهملت تصور حالات من جلست ــ واستمعت ــ إليهم . همّنى الروايات المتعددة ، وليس المفردات ، أو اللهجات التى قيلت بها . ما همنى : ماذا قالوا ، وليس كيف قالوا ..

بعض ما روى عن طفولة
فرج خليل ونشأته

قال الحاج سليمان عبد الواحد :

لا أدرى ــ على وجه التحديد ــ متى كانت البداية ..

السمارة قريتى . تقوم أسرها على بدنات ، ينتمى كل منها إلى أصل واحد . عائلة ، مضى على قدومها إلى السمارة أعوام قصيرة ، أو طويلة ، تفرعت من البدن الواحد ، الأصل الواحد . بنى أبى بيتها الأول . العائلات الثلاث : صفراتة ، والنخيلى ، وعبد الواحد ، لايجاوز عدد أفرادها المائة . الترحيلة قدمت من ديرب نجم وخفير شهاب الدين وكفر سعد . القلة بدأت رحلتها من الصعيد ، أصفون المطاعنة وأبنود . الزمام جاوز الدقهلية . لنا الآن خمسمائة فدان ، نعبر لها الجسر داخل الشرقية ..

ادعى ابن شفيقة لنفسه أصلاً من الحجاز . قال إن جده قدم إلى مصر فى زمن قديم . استوطن ، وتزوج منها . توزع أبناؤه فى مدن المديرية وقراها . وسافر منهم وراء العمل فى مناطق بعيدة ..

ابن شفيقة ليس من أهل السمارة . ما رواه عن أصله من اختراعه ، فهو بلا أسرة معروفة ، ولم يكن أحد من أهل السمارة يعرف عن أصله شيئاً . قيل أن أبويه جاءا مع مهاجرى الشرقية الذين فروا من وجه السلطة ، ووجدوا فى قريتنا الحرية والأمان . وقيل إن أبويه قدما مع الترحيلة إلى عزبة النخيلى القريبة . وكانا يترددان على القرية لشراء لوازمهما . أقاما علاقات ومعرفة وصداقات ، وتخلفا عن الترحيلة ، بعد أن غادرت عزبة النخيلى ، ولزما السمارة . وشاهد عم طلخاوى ـــ فى طفولته ـــ الأبوين يدخلان السمارة ذات صباح . مالا من السكة الزراعية ، إلى المدق الترابى ، وثمة ـــ فى مدى الأفق ـــ سنابل قمح ناضجة . يسهل تبين الغرباء عن القرية من رجال الإدارة والباعة والمتسولين والمجاذيب وعابرى السبيل . قالا إنهما سارا ثلاثة أيام ، من قرية غير معلومة . حتى أمه ليست من أبناء قريتنا . اسمها ولقب عائلتها لا يعرفهما أحد ، لكن سحنتها تدل على صعيدية أهلها . شفيقة هو الاسم الذى عرفت به . الأب مات فى طفولتنا دون أن نعرف عن أحواله شيئاً ..

قيل إن المرأة غازية ، تعرف إليها خليل زهران حين كان يمارس النشل فى مولد سيدى أحمد البدوى ، فاستهوته ، وعقد عليها ، وتنقلا من بلد إلى آخر ، حتى استقر بهما المقام فى السمارة ..

لم يبدأ بمهنة محددة ..

كان يؤجر عافيته . عمل فى تنقية الدودة ، وفى جمع القطن ، وحصاد القمح والمحاصيل . وعمل ـــ لأشهر ـــ فى وابور الطحين . ينقل الأجولة والقفف ، ويدق القادوس . ثم انتقل إلى حرف لانهاية لها : يعزق الأرض ، يعمل على الشادوف والمحراث والنورج والقصبة ، ينزح الآبار من البيوت ، يقطع السباخ من الحظائر ، يقتلع الحشائش الغريبة ، يروى البرسيم ، يشتل الأرز ، ينتزع ورد النيل من مجرى الترعة ، يحرس الزرائب والسواقى والغيطان . مجرد أن يحصل على القرش ..

قال عم طلخاوى :

كنت أعرف خليل زهران ..

نشأت وأنا أعرفه ، لكننى لم أعرف له أباً ولا أماً ولا أهلاً . قيل إنه فر من مطاردة ثأر . وقيل إنه تورط فى حادثة قتل ، فترك قدميه تسوحان فى بلاد الله خلق الله ..

أذكر أنى قلت لخليل زهران :

ـ أين بلدك ؟

أشار بأصبعه ناحية الشرق ، دون أن يحدد اسم البلدة التى قدم منها ..

أعدت السؤال :

ـ هل أنت من بحرى أو من الصعيد ؟..

قال :

ـ عشت حياتى متنقلاً بين الموالد ، فلم أسأل أين ولدت ..

ـ وام فرج ؟..

لاحظت ارتعاشة خفيفة فى شفتيه :

ـ تعرفت إليها فى مولد سيدى إبراهيم الدسوقى .. ثم عقدت عليها ..

ـ وأبوك ؟.. وأمك ؟..

تداخل تهدج صوته بانفعاله :

ــ أعرف أنهما من الدقهلية .. لكنهما تركاها من زمان ..

وسرح بنظراته :

ــ أول ما أذكره ، حياتى مع أسرة من الغجر كانت تتنقل بين الموالد فى مديريات الصعيد .. من أسيوط وطالع..

ــ وزوجتك ؟..

زوى ما بين عينيه :

ــ مالها ؟..

ــ ألا تعرف أسرتها ؟.. ومن أين هى ؟..

شوح بلامبالاة :

ــ مالى بأسرتها ؟.. أعجبتنى فتزوجتها ..

قال عوض عبد العال ، ناظر عزبة النخيلى :

ولد فرج خليل ونشأ ، مثل كثيرين من أبناء قرية السمارة ، ومثل كثيرين من أبناء قرى الدقهلية ، وقرى

مصر كلها . لم يستلفت النظر بما يثير ، أو يشد الانتباه ، ولم يختلف عن سواه من آلاف الأطفال الذين ولدوا يوم مولده ، أو قبله ، أو بعده ، وإن نسجت الحكايات والحواديت والغرائب حول حياته ، منذ مولده إلى مماته ، قبل أن يجاوز الخامسة والأربعين ..

روى لى أبى إنه رافق خليل زهران إلى السنبلاوين ، ليلة الجمعة اليتيمة . بطحه الحلاق ـــ بباطن كفه ـــ فى جبهته ، كى يعيش . وعاش حياة عادية ، قضى جانباً كبيراً منها فى بيت العمدة ، ثم مال إلى حياة الليل ، فنسجت حوله حكايات الخيال ، ونسب إليه الكثير من الأعمال الخارقة ، فهو يستطيع ـــ بقوته البدنية وحدها ـــ أن ينفذ من الحوائط ، والجدران ، ويتخطى الأسلاك الشائكة ، وأسوار التين الشوكى ..

قال الشيخ التهامى رزق :

قضيت سنوات التعلم فى المعهد الأحمدى ، وفى الأزهر . عرفت فرج خليل خادماً ، أو شبه خادم ، فى دار

العمدة سليمان عبد الواحد . يقضى له الحاجات من القرى المجاورة ، أو من السنبلاوين . ربما انتظر أصدقاء للعمدة على محطة القطار ، يسير خلفهم ، يدلهم على الطريق إلى السمارة . قيل إنه ولد لحظة موت أمه . أعقبت صرخاته صرخات الأم قبل أن يهدأ جسدها ، وأعقب صوات النسوة صرخات الأم ووليدها ..

ليست هناك رواية واحدة ، مؤكدة ، عن فرج خليل .

ثمة من أحبه ، ومن كرهه . الأعوام الأولى من طفولته يلفها الغموض . ما رواه أهل القرية يغلب عليه عدم التحديد . كأنهم يتحدثون عن أشخاص كثيرين ، لا شخصاً واحداً . أبواه معروفان ، وبيته مازال قائماً فى أطراف القرية . أدخله أبوه الكتّاب ، ظل فيه حتى أتم حفظ القرآن . وقيل إنه لم يتعلم فك الخط . وثمة رواية أنه أفاد من نزلاء السجون فى التعلم ، حتى أجاد قراءة الصحف . وقال سلامة حسبو إنه عثر فى أوراق فرج خليل على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية . وروى أن شيخاً زار السمارة على رأس طريقة صوفية ، فقال وهو يتأمل الولد ، دون أن تكون له به سابق معرفة :

ـــ سيكون لهذا الولد شأن عظيم !

ألفت رؤيته ـــ فيما بعد ـــ أمام دكان عم طلخاوى البقال . ربما وقف ـــ فى غياب الرجل ـــ يبيع الشاى والسجاير والعطارة وأقماع السكر ومكعبات الصابون والأقلام والكشاكيل والكعك والحلوى . وربما ألقيت السلام على الرجال ـــ وهو بينهم ـــ فى قهوة صبحى طعيمة . دكان كالحق ، تنز جدرانه بالرطوبة ، والموقد فى الركن ، صفت عليه أباريق معدنية ، وأكواب ، وعلقت الجوز على الحائط ، ولوحة لأبو زيد الهلالى يركب حصاناً ومن ورائه الجميلة ناعسة الأجفان . وتناثرت فى الداخل وأمام الباب كراسى من القش ، بينها ترابيزات صغيرة من الحديد . ويتدلى كلوب كبير أوسط المدخل ، تحت بلكونة الطابق الأول ..

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

ولد ابن شفيقة فى القرية ، لكنه بلا أسرة . نعرف أمه . خادمة تتردد على البيوت . اسم ابن شفيقة الذى أطلقه العمدة عليه ، ذاع ، وانتشر . عرفه الجميع ، وتبادلوه ، إلاّ

هو . لم يجسر أقرب أعوانه على مصارحته بالاسم الذى ذاع . لا نعرف أباه . لا نعرف له أباً ، فهو كالنبات الشيطانى ، لا أقارب له فى القرية ، ولا فى القرى المجاورة ..

أسر القرية تنتمى إلى ثلاث عائلات ، تتصل بصلات نسب ، فتصبح القرية كالبدنة الواحدة ، كالقبيلة الواحدة ..

ابن المرة أولى به اسمها . ابن شفيقة هو . تزوج العهر بالقوادة فأنجبا الضياع الكامل . البطالة تغوى بالجريمة . السمارة تنكرها . أهلها طيبون بسطاء ، برغم تفاوت البيئة والنشأة . ربما عائلة أصلها من الصعيد ، وأخرى من شمال الدلتا ، وثالثة من برارى الفيوم . لقمة العيش شغلت الجميع ، فلا يعنيهم سواها ..

لم يكن له غيط يزرعه ، ولا تجارة يعمل بها . جاء بعد ثلاث بنات . شط والداه فى تدليله ، حتى فسد . عمل ــ لفترة ــ طبالاً ، يقرع الطبل فى الأفراح ، وأمام الجنازات ، ويمارس عمل المسحراتى فى ليالى رمضان . يحصل من الأسر على كميات من المحاصيل ، ويتلقى مالاً ومأكولات وملابس فى المواسم والأعياد . ثم عمل ــ أشهراً ــ فى

خدمة العمدة . يحمل التراب من الغيطان البور ، لتتريب أرضه الخالية فى قرية حانوت ..

لما آنس طيبة أهل السمارة ، وميلهم إلى الخير ، توهم أن ما يهبونه حق له ، فتحول إلى فرض الإتاوات . ثم تعددت حوادث السطو . يحل البهائم من قيودها داخل الزرائب ، يلف الشحوط على رقابها ، ويسحبها . عمل لحساب نفسه ، ولمن يدفع الأجر . سكت عنه العمدة ، حتى أصبح الأمن أملاً . استدعيته ، فلم يملأ عينى . صفعته ، وهددته ، فخدعنى ..

عندما صدرت الأوامر بتجنيد من بلغوا سن القرعة . انتشر العساكر فى الأسواق والطرق الزراعية والحقول وتحت الجسور وفى الغرز ، يسلم البعض نفسه بلا مقاومة ، ويعصلج البعض قبل أن يجرى تكتيفه . وفر ابن شفيقة ــ مع آخرين ــ إلى غيطان القصب ، وفوق الأسطح ، وداخل حطب القطن ، أو قش الأرز ، وتحت كيمان السباخ ، وإلى الأماكن التى يسهل اختفاؤهم فيها ..

قال عبد اللطيف صفراتة :

قيل إن فرج خليل لم يصرخ ــ عند ولادته ــ كبقية الأطفال ، لكنه ظل صامتاً حتى حسبته الداية ولد ميتاً . قرصته أم مشالى من فخذه ، فصرخ متألماً . وقيل إنه بلا أبوين تعرفهما القرية . لقيه خليل زهران فى لفافة تحت شجرة على الطريق السريع بين المنصورة والزقازيق ، فتبناه ..

قيلت عن طفولة فرج خليل وقائع غريبة : هل كان صامتاً ، عزوفاً عن اللعب مع الأولاد ، كما روى سلامة حسبو ، أو أنه كان شقياً يؤذى من هم فى مثل سنه . وربما طال أذاه الحيوان والطير . وكان يركب أعمدة التليفون ، ويتسلق النخيل ، ويسرق غيطان البطيخ ، ويخيف المارة بالخروج المفاجئ من أعواد الذرة . وأكد العمدة سليمان عبد الواحد أنه رآه بعينيه يقذف قطة بحجر . فلما اطمأن إلى موتها ، وضع الحجر فوقها شاهد قبر ، ثم دعا الأولاد لرؤية ما فعل ..

لما كبر ، اعتدنا رؤيته يتجول فى حوارى القرية . من حوله ، مجموعة شبان ، نعرف أقلهم ، ولا نعرف غالبيتهم .

حتى هؤلاء الذين نعرفهم لم يكونوا من السمارة . كانوا من المترددين علي السوق التى تقام خارجها ، طيلة نهار كل اثنين . أصبح يرتدى الجلابية الحرير فى الصيف ، والكشمير ، أو الصوف ، فى الشتاء ، واللاسة السكروتة . طوله البادى ، قامته الأقرب إلى النحافة ، شعره الأسود الكث ، يحسن تصفيفه ، وإن أهمل خصلة منه على جبينه ، تتحرك إذا تحرك ، أو انفعل . وكان له ابتسامة تلصق البراءة فى وجهه . يتمشى فى سوق القرية ، أو فى داير الناحية . تمر أمامه مواكب الجنازات والأفراح ، ويمر فيه المنادى على الأطفال الغائبين . لا يستخدمه أهل السمارة فيما عدا ذلك إلاّ نادراً . كل بدنة تستخدم الجزء المواجه لمنطقتها فى الوصول إلى غيطانها . يسلم على الرجال فى دكان عم طلخاوى ، ويسحب كرسياً ليجلس وسط المترددين على قهوة صبحى طعيمة . يقضون الأمسيات ، يشربون القهوة والشاى ، يتناقلون الجوزة ، يشرّقون بالكلام ويغرّبون ، عن أسعار الغلال والبهائم ومياه الرى والدودة وآفات الزراعة وسماد بنك التسليف . ربما تردد على غرزة مسعود القط أول الطريق المفضى إلى الشرقية . والتقيت به ـــ مرات كثيرة

ـ فى البرحاية التى تتقابل عندها كل شوارع القرية وحواريها ، فى وسط القرية ، فى قلبها ..

قال سليمان عبد الواحد :

لاحظت أنه يستعلى على العمل ، ويطلب الحياة السهلة . يقضى أغلب وقته على الجسر ، أو فى الزرائب لأفعال قبيحة ، وربما تحت شجرة فى طرف غيط ، أو يلزم الطاحونة . هو الساكن الوحيد فى مكان يتحرك فيه كل شئ : الماكينة ، والقادوس ، وسير العجلة المنساب بلا توقف ، والدقيق الهابط من الفتحة ، والكفوف تضغطه فى المقاطف ، والحساب ، والزعيق ، والزياط ..

ألحقته بالخدمة عندى . لم يكن يعارض ، ولا يتأفف ، ولا يشكو التعب ، ولا يتردد فى تنفيذ أوامرى إليه . ثم غوى حياة الليل ، فعاشها ..

الليل هو العالم الحقيقى لابن شفيقة وأعوانه ..

أبناء الليل تسمية لها أصلها . يحسنون الوثوب والاختفاء ، يطمئنون إلى غياب الأعين الملاحقة أو المترصدة ، لواذ الناس بالبيوت ، وجود البهائم داخل الزرائب ، والمحاصيل بلا حراسة حقيقية فى الغيطان ، أو فى الأجران ..

تعددت حوادث سحب البهائم من زرائب عبد الواحد وصفراتة والنخيلى . وكانوا يسرقون عروق الخشب من الحظائر ، يحشّون الأجولة بالأرز وكيزان الذرة . لم نعد نأمن سرقات ابن شفيقة إلاّ فى مسرى ونسئ وتوت . تغمر مياه النيل الغيطان . يقتصر السير على الجسور . تتعالى تحذيرات رجال الرى والإدارة والخفراء . يأمن الناس أذية ابن شفيقة ، فهو لا يظهر . وإذا ظهر ، فهو يرتدى البراءة أمام دكان عم طلخاوى ..

لم يعد يسرق للمال . تملكته المغامرة ، والميل إلى الشر والإيذاء ، وملاحقة النظرات المتطلعة ، والخائفة ..

قال بشير النحاس :

كان فرج خليل سلطان الرجال ، وبطل الأعيان ، وفارس العصر والأوان . لم يفعل شيئاً إلاّ لحكمة غابت عن العقول الغبية ، وسرّ بنتائجها الغلابة من أبناء السمارة . كان مولده فى ليلة السابع والعشرين من رمضان . لما أنجبته أمه كانت قد جاوزت الستين ، وهو ما حير أهل السمارة . روت أنها رأت فى المنام ــ ليلة ولادته ــ من همس لها : ابشرى يا طويلة البال ، فقد جزاك الله على صبرك بطفل سيكون فارس أوانه !.. وروى الشيوخ من أهل القرية ما رافق مولده من غرائب ، فقد سمعوا صوت رعد ، ورأوا فى السماء ما يشبه البرق دون أن يصاحب ذلك غيوم ، وهطل المطر ، فى حين كان الجو صحواً . وقيل إن أم مشالى الداية ظلت ــ بعد ولادته ــ ساهمة ، لا تتكلم ، وتنظر بعين ثابتة إلى الأمام ، وتغالب ارتعاشة فى جسمها كأنها تعانى حمى . وقيل إنه رفض أن يرضع من صدر أمه إلاّ بعد أن قامت للوضوء والصلاة . لم يؤثر فى بدنها أنها عجوز ، ولا أنها كانت حديثة عهد بالولادة . ولما دعا أبوه الأسطى عبد الشكور الحلاق ــ صباح يوم ولادته ــ للتعجيل بختانه ،

اكتشف الرجل أن فرج ولد مختوناً ، فأغلق الشنطة الجلدية الصغيرة ، ورفض أن يتقاضى مليماً . وقيل إن تعلمه الكلام اقترن بأدعية هامسة ، التقط منها أبواه أسماء الجلالة والرسول وآل البيت والأولياء الصالحين . لم يكن الطفل يطيق القماط حول جسمه . كان يفضّه بفخذين قويين . وروى لنا أنه لم يكن فى طفولته كالأطفال فى مثل سنه ، لم يقبل على اللعب ، ولم يرتكب حماقة ، ولم يلجأ إلى الكذب للفرار من خطأ ارتكبه . وقيل إن الغجرية مبسوطة قرأت له طالعه ، بعد أن وشوش له أبوه الذكر . تنبأت له بالنجاح فى حياته ، وأنه سيكون رجلاً مهماً ، يواجه العقبات ، ويتغلب عليها ..

قال بشير النحاس :

أعرف فرج خليل منذ طفولته ..

دعت أمه بمثل دعوة خضرة الشريفة أثناء حملها : أن يهبها الله ولداً شجاعاً ، وإن لم تتمن أن يكون ولدها فى سمرة الغراب . تمنته قوياً ، جميلاً ، قمحى البشرة فى لون

أبيه وأمه . وكان أهم ما يميزه عينان بنيتان ، من الصعب على محدثه أن يحدّق فى التماعهما ، وأنف مستقيم يطل على شارب أميل إلى الصفرة . لم يتعلم فى كتاب ولا على يد شيخ ، كان علمه من عند الله . لا أذكر أنى رأيته عابثاً . وكانت تغلب عليه مسحة من الهدوء . يقودنا دون اختيار وبلا تعمد . نتبعه فى السكك والمدقات والغيطان ، وعند المسجد وقهوة طعيمة ودكان عم طلخاوى والنخيل والصفصاف والسواقى . ينصت إلى أحاديثنا عن السماد والبذور والمحاصيل وسوق القرية والعمدة وأسعار البهائم ومستشفى المركز وأبناء الليل وآخر الشائعات . إذا تكلم ، تغيب الثرثرات الجانبية ، والعبارات المقاطعة ، والتعليقات . يرين هدوء ، فلا يعلو سوى صوته ومنطقه ورأيه . يحسم الأمر الذى يطول فيه الخلاف . واشتهر ببراعته فى التحطيب . يجيد الإمساك بالعصا ، والابتعاد عن ضربات الخصوم ، وينتصر فى كل مرة . واعتدنا فوزه فى حمل جوالات الكيماوى وأكياس القطن . ولم يكن يتعاطى المخدرات ، ولا يشرب السجاير . وظل يرفض أدوار الشاى . ثم اعتاد مشاركتنا شرب الشاى فى قهوة صبحى طعيمة ،

أو فى الخلاء . وكان يطيل تأمل رسم الهلالى فوق جواده ، على جدار قهوة طعيمة ، يتحدى مالا يرى ..

طال عمله عند العمدة ، دون أن يعطيه أجره . يطعمه ، وينيمه فى الزريبة ، ويأمره بما لا قبل لبشر على تحمله ..

قال فرج خليل :

ــ أنا أعمل بلا أجر ..

قال العمدة :

ــ ماذا تقصد ؟

دون أن يغلبه الانفعال :

ــ أى عمل لابد أن يقابله أجر ..

روى لنا فرج خليل أن حياته تغيرت منذ دعا فى ليلة القدر ، فانفتحت له طاقتها . لم ينطق بكلمات محددة . اكتفى بالهتاف من قلبه : يا رب !.. لبى السميع العليم ما كان فرج خليل ينوى الدعاء به ، فاستجاب له ، وأنصفه من ظالميه . يسر له طريقه ، وما سعى إليه . أخبرنا أن السيد البدوى ظهر له فى المنام ، يرتدى عباءة خضراء ، ولف رأسه

بعمامة يمتزج فيها اللونان الأبيض والأخضر . تحسس رأسه برفق ، وقال :

ــ إذا قمت فى صباحك ، فأنت فارس العصر والأوان الذى يخضع الناس لإرادته ..

وسأله شحاتة عز الرجال :

ــ كيف عرفت يا معلمنا أنه السيد البدوى ؟..

قال فرج خليل :

ــ فوتت أمى الملاحظة :

ــ الطبيب أكد أن الوهم هو المشكلة ..

وزفرت فى ضيق :

ــ كلموه أنتم !

ــ مع أنه لم يعلن لى اسمه ، فإن اليقين فى داخلى أكد لى أن الواقف فوق رأسى هو شيخ العرب لا سواه ..

قال شحاتة عز الرجال :

ــ فهل دلك على الوسائل التى نواجه بها مكائد العمدة ومطاردات البوليس ؟

قال فرج خليل فى هدوء :

ـــ كل شئ مرهون بأوانه ..

منح الله فرج خليل قوة لا قبل للبشر بها ، وضعها فى خدمة من يستحقونها من الغلابة . رفض أن يهب عونه لمن جعلوا أنفسهم فوق البشر . فى بابه تنحسر مياه الفيضان ، فيخضر وجه الأرض ، ويجنى القطن ، ويحصد الذرة ، وتسهل سرقة القمح . الليل ما بين المنتصف وصلاة الفجر ، هو أنسب الأوقات للسطو على البيوت والدكاكين . يحل التعب على الناس ، فينامون . الصوت سادر ، يعمقه صرير الجنادب ، ونقيق الضفادع ، ونباح الكلاب ، وانطلاق القطار فى نهاية الغيطان . لا نسطو على بيت صحا سكانه . والشتاء أفضل من الصيف . الصيف حصيرته واسعة . يمتد السهر إلى الصباح . ينام البعض فوق الأسطح تلمساً للطراوة . فى بشنس ، تكسو شجيرات القطن الأرض ، فيسهل إتلافها انتقاماً . أوان حصاد القمح ، ووضعه فى الأجران ، تمهيداً لفصل حبه عن قشه ، أنسب وقت لإشعال الحرائق والسرقة . المبيت فى الأجران أثناء جمع المحاصيل ، يسهل اقتناص المطلوب ترويعهم . فنحن لا نقتل . كنا نسرق البهائم وهى

عائدة من الحقول ، أو وهى مربوطة فى الزرائب . نخفيها فى دوار العمدة ، دون أن يعرف العمدة نفسه ..

شدّد فرج خليل علينا ، فلا نؤذى من يلقى علينا السلام ، ولا نسطو على بيت تقيم به أسرة فقدت عائلها ، ولا نتعرض بأذى للجالسين فى دكان عم طلخاوى ، أو قهوة طعيمة . كن قاسياً ، واترك للعاطفة منفذاً . القسوة غير المتدبرة عمياء . زاد ، فحمى السمارة من سطو اللصوص . سرقة أى شئ من بيوت القرية إهانة لم يتصور أنه يحتملها .

منذ ظهر فرج خليل فى حياة السمارة ، لم تتعرض لسرقة أو غارة أو هجمة قاطعى طريق أو فرض إتاوات . يتحدث أهلها عن أعمال فرج خليل فى القرى المجاورة ، والبعيدة ، وفى السنبلاوين ، وربما فى المنصورة . لا يخشون أنها قد تفاجئهم فى السمارة ..

قال المعلم صبحى طعيمة :

ولد ابن شفيقة لحظة موت أمه . ومع أن أباه جاء إلى البيت ــ بعد وفاة أمه بثلاثة أشهر ــ بزوجة جديدة ، شابة ،

إذا قارن بينها وبين أمه ، فهى ابنتها . بيضاء الوجه ، ناعمة البشرة ، ترتدى الثياب الضيقة ، فيبين جسمها الطويل الملفوف . مع ذلك ، فإنه ظل على حبه لأبيه ، وإن كره زوجته . لم يتصور أن امرأة أخرى غير أمه تنام إلى جوار أبيه ، تجلس فى فسحاية البيت ، تسوى الخبز والصوانى أمام الفرن ، تقذف ماء الغسيل والاستحمام أمام البيت بآخر عزمها . لم يكن أمام فرج إلاّ أن يعصى أمر أبيه ، أو يقتل زوجته ، أو يهجر البيت فلا يؤذى أحداً ..

وهذا ما فعله ..

إسقاط الإضافـــة

قال الحاج سليمان عبد الواحد :

اليد العليا خير من اليد السفلى . وكان ابن شفيقة هو اليد السفلى دائماً . لا يزرع ، ولا يتاجر ، ولا يبذل ما يعينه على كسب قوت أيامه . إنما هو سائل للميسورين من أبناء السمارة . فلما آنس طيبتهم وحبهم للخير ، توهم أن ما يهبونه حق له . فرض الإتاوات ، وسطا على البيوت ، وسرق الماشية والدواجن والحبوب ، وأتلف المزروعات ، وسلب الآمنين راحتهم ..

قلت له :

ــ ظهرت عليك النعمة ..

قال :

ــ الحمد لله ..

ــ وما السبب ؟..

قال صبحى طعيمة مداعباً :

ــ ملك الملوك إذا وهب ..

قلت :

ـــ ملك الملوك أم الشيطان ؟..

قال ابن شفيقة :

ـــ الشيطان تعرفه أنت !..

كما نعلم ، فإنه ليس بعد الحق إلاّ الضلال . وقد خرج ابن شفيقة عن الحق ، فضل ضلالاً مبيناً . اتبع سبيل الشيطان . نصحته وناس القرية وذوو العلم والمروءة ، فاستمر فى غيه ، لا ينصت لنصيحة ، ولا يعبأ بأمثلة ولا عبر . لم تقتصر حياته على جريمة محددة ، لكنه مارس كل أنواع الجرائم : القتل ، والسطو ، وإتلاف المزروعات ، وتسميم الماشية ، والخطف ، والتهديد ، والحرق العمد .. لا يستطيع أن يهجر تلك الطريق ، أو يحترف مهنة أخرى ..

سلامة حسبو هو اليد الباطشة فى جرائم ابن شفيقة . يصدر الأوامر ، ويكل إليه التنفيذ ، أو يشاركه فيه . عيناه الواسعتان ، القلقتان ، تتناقضان مع تكوينه المتضائل . جسمه نحيل أميل إلى القصر ، لا يكاد يستقر فى موضعه . قدم من عزبة الربع القريبة . أبوه شيخ خفر له سمعته . ضبطه يهم بزوجته الشابة . لاحقه بالرصاص حتى غاب فى أفق القرية . جعل نفسه صبياً لابن شفيقة ، وإن ميز نفسه عن الباقين ،

قدموا من مناطق بعيدة . لا أصل ، ولا أسر ينتمون إليها ، ويحيون خوف المطاردة لجرائم ارتكبوها ..

كان ابن شفيقة يسرق ، ويقتل ، ويرتكب الفظائع ، ثم يسعى إلى بيت الشيخ التهامى رزق ، يبكى ، وينهنه ، ويأتى بالنذور ، ويلتمس البركات . يظن أنه قد أبرأ ذمته ، وأدى ما عليه من حق الدين ، واتقى جحيم الآخرة ..

قال شحاتة عز الرجال :

شجعنا ضوء القمر على مواصلة السير . تمضى أقدامنا فى الطرق الضيقة وسط الغيطان . كانت السماء صافية ، نقية النجوم . ومن حولنا تترامى الأصوات الليلية : البوم والضفادع والجنادب والكلاب وهسهسات شواشى الذرة الشامية والنخيل وأغصان الشجر . رحنا نتكلم ، ونتكلم . أروى وينصت ، ويشرح الظروف ، وأبدى تأثرى . كنا قد تجاوزنا السمارة بمسافة قليلة ، عندما تبينا أن الصداقة أقرب إلينا من كل ماعداها ، فعدنا إلى القرية ..

حاصرته الاتهامات الظالمة بالسرقة ، فمارس السرقة فعلاً ..

بدأ بسرقات صغيرة : ثمار خضراء ، وفاكهة ، عب قطن ، كيزان ذرة . ثم سرق الطيور والأرانب من الأعشاش . سرق زغاليل الحمام . علمها الطيران ، والعودة إلى أعشاشها أعلى سطح البيت . يبيعها ، ويتقاضى الثمن ، فتعود إليه . واجترأ ، فسرق ثلاث بقرات من زريبة صفراتة ، أعادها لأصحابها بعد دفع الحلوان . لم يعاونه ــ فى البداية ــ أحد . يراقب المكان ، بيتاً ، أو دكاناً ، أو زريبة . يدخل ، فيأخذ ما يأخذ ، ثم يمضى . وكان يستطيع لزوم مكانه ، لا يغادره ، ولا يتحرك . ساعات متوالية حتى يزول الخطر ..

قال لى :

ــ أحسست بالحاجة لأن أكون ما يتهمنى به العمدة ، فأقدمت على السرقة !..

واختار الحياة خلف الأشجار ، وتحت الجسر ، وعلى حد الخلاء بين أعواد الذرة . ويحط على قهوة طعيمة ــ فى

أوقات يختارها ــ يجالس الرجال ، ويسامرهم ، ثم يلقى سلامه ويمضى ..

كنت أتأمل نظراته ، فأعرف ما بداخله : الفرحة والحزن والغضب ، يشى بما لا يحاول التكلم فيه شرود . أخمن إن كان بوسعنا سؤاله ، ومناقشته ، أو نتركه لما يشغله ..

قال آدم وزة :

قدمنا إلى السمارة بصيت فرج خليل . ما بدا كأنه الخوارق أو السحر . كنا أفراداً يطاردنا البوليس داخل قرانا وخارجها . سعينا إليه ، وخاطبناه بالمعلم . اختار من اطمأن إلى أصولهم فى الدقهلية ، واعتذر للباقين ..

كان أهم ما يميزه أنه إذا أغمض عينيه ، وأنصت إلى محدثه جيداً ، فطن إلى سره ، وما يضمره . أنسنا إلى معلمته ، نستمع إلى أوامره ، فننفذها . يحرص أن يشاركنا ما نفعل ..

قال صبحى طعيمة :

كان فرج خليل يعرف مصيره منذ البداية . موت أمه ، ما رواه له أبوه ، نبوءة الشيخة حياة . وعرف أنه سيواجه الكثير من الأخطار ، حتى يجد نفسه فى النهاية يحقق ما كان يحلم به ..

اعتاد مناداة العمدة له بابن شفيقة . يزوم ، يظهر الغضب ، لكنه يلبى النداء حتى لا يؤذيه العمدة . لم يرث الرجل العمودية ، ولا كان يمتلك ما يؤهله لها . قيل إن أرضه لم تزد على ثلاثة فدادين . وحين عرف طريق السياسة ، وأدى خدمات للحزب الذى فاز بالحكم ، عينه الحزب عمدة للقرية ، واتسعت الفدادين الثلاثة . أضاف إليها بيتاً من ثلاثة طوابق ووابور طحين ، وقيل إن له أسهماً فى بورصة الأوراق المالية ..

همس فرج خليل ــ ذات يوم ــ فى سخط :

ــ اسمى فرج خليل .. فرج خليل زهران ..

قال العمدة :

ــ شفيقة إسم أمك ..

علا صوته بالغضب :

ـــ وماشأن أمى ؟..

قال العمدة :

ـــ أنت ابن خليل زهران .. وابن شفيقة ..

ومضت عيناه الملتمعتان :

ـــ الرجل ينادى باسم أبيه ..

أطلق العمدة ضحكة مجلجلة :

ـــ الرجل يا ابن شفيقة .. الرجل !..

صرخ فرج خليل :

ـــ أرفض هذه التسمية ..

وشى صوت العمدة بسخرية :

ـــ هل تملك الرفض يا ولد ؟!..

ثم وهو يعدل النظارة الطبية على أرنبة أنفه :

ـــ أنا أقرر كل شئ !..

وأحنى فرج خليل ظهره ، فوضع عليه خلاّف أبو كيفه

ـــ خادم العمدة ـــ حمل تبن ..

ومضى ..

وحين ناداه العمدة وسط الرجال فى القهوة ، هتف :

ـ لا تنادنى باسم أمى ..

إرتج على العمدة ، واحمرت أذناه ..

قال شيخ الخفر توفيق إسماعيل :

ـ من منا ليس ابن مرة ؟..

مسح بعينيه وجوه الرجال :

ـ هل منكم من ينادى باسم أمه ؟..

قلت مهوناً :

ـ العمدة مثل أبيك ..

قال فرج خليل :

ـ كان أبى ينادينى باسمى ..

قلت لأنهى الموقف :

ـ لا تحبكها يا فرج .. واتكل على الله ..

ناداه العمدة باسم أمه ، فتبعه أهل السمارة . ثم لصق به الاسم ، وإن لم يناد به ـ فيما بعد ـ فى مواجهته . حتى العمدة أصبح يناديه باسمه الحقيقى : فرج خليل . يدرك مدى رد الفعل الذى سيواجهه به الرجل لو أنه ناداه باسم أمه ..

لم يعد فرج خليل ــ منذ استقل بحياته ــ يخاف العمدة ، ولا يأخذ جانب الطريق إذا رآه مقبلاً ، وإن أكد العمدة أنه لم يكن يجسر على أن يرفع عينيه فى وجهه ..

لجأ العمدة إلى القوانين العرفية للحرب العالمية الثانية . طلب إدراج فرج خليل فى كشف الخطرين على الأمن العام . كان فرج فى الثامنة عشرة ، ولم يكن قد فعل ما يذهب به إلى الموضع الذى اختارته الحكومة لمن تتقى أذاهم..

قال بشير النحاس :

إذا لم يقل أهل السمارة رأيهم فى العمدة فى وجهه ، فإنهم قالوه فى الغيطان والجسور والغرز وفوق الأسطح ، وفى قعداتهم الخاصة ..

مكَن العمدة لأهله والمحسوبين عليه . أسقط أرزاق الناس ، وأطلق يد توفيق إسماعيل والخفراء يضايقون الجميع . طوع قانون الطوارئ لهواه ، بلّغ المركز عن المنكمشين والذين فى حالهم . أفلح فى التخلص من خصومه وخصوم عائلته ، بإدراجهم فى قوائم الخطرين على الأمن العام . أفاد

من قانون الطوارئ ، فنفوا إلى جبل الطور . سجل المواليد الذكور على أنهم إناث . أهمل من رشوه ، فلم يطلبهم للقرعة ، زور الأختام لسلب الحقوق والاستيلاء على الأموال ، تستر على اللصوص والمطاريد وتجار المخدرات ، تقاضى الرشاوى للإعفاء من الأشغال والعوايد الشخصية وضريبة الملح . وكان يلجأ إلى الأجراء من أبناء السمارة فى مواسم الزراعة والفيضان ، يستغنى عنهم فى فترات ما بعد التخضير ، وما بين دورات الرى ، وأثناء التحاريق . لا يلتزم بالتعليمات التى تصدرها المديرية كأنها تعنيه هو بالتحديد . لا سخرة للفلاحين فى أرضه أو أرض غيره . حتى أراضى الحكومة يقتصر العمل فيها على الترحيلة . يعملون باختيارهم ، وبأجر ..

رفض فرج خليل ، مثلما رفض العمل فى أرض العمدة . توقع عياراً نارياً يترصده فى الظلام . احتاط لغضب العمدة ، فاختار البقاء فى البيت قبل أن يحل الغروب . أنفاس المباحث ترددت فى الغرز والمصاطب والبيوت والجسر . بئر التحريات مجدبة . ما أسهل أن يغزل نسيج الماضى من خيوط الأكاذيب . شفيقة التى كانت أماً لطفل فى

شهادة ميلاد ، صارت غازية . الوالد الفلاح أصبح قواداً . القراريط الثلاثة هى الثمرة التى يسعى الثعلب إلى التهامها . البندقية اللقيطة وجدت فى داخل الحطب . أمر الاعتقال يلحق المصادرة . تفقد الأرض صلابتها . تعانى ، تهتز ، تميد ..

بدأت الحكاية بكذبة ..

قال الحاج سليمان عبد الواحد :

لا أذكر متى كانت البداية ..

المزروعات قلّعت فى كل الغيطان ، ماعدا قراريطه الثلاثة . عرضت عليه العمل خفيراً لإيقاف جرائمه . الأمر جاوز الشكوك لما فرض أتاوة على عائلة الدسوقى . سايرته ، أخلصت له النصح . أبى واستعفى . كون ــ مع أبناء الليل ــ عصابة . يخفون البهائم المسروقة فى زراعات الذرة ، أو القصب ، أو فى مخزن مهجور لعائلة صفراتة ، فى طرف القرية . ربما باعوها فى أحد أسواق القرى ، صباح اليوم التالى ..

حرمت عليه الدخول إلى الدوار . خصصت ساحته الفسيحة لاستقبال أبناء القرية . تحيط بنا غرف الاستقبال والمكتب والتليفون والسلاحليك . أناقشهم ، أحاول حل مشكلاتهم ، أزيل الخصومات قبل أن تتسع ..

قانون الطوارئ يهبنى الحق فى أن أفعل ما أشاء لمنع الجريمة . مسئولياتى لا تقتصر على مجرد الإبلاغ عن المشبوهين . تمتد فتشمل حفظ الأمن ، تقديم الأنفار للقرعة ، فض المنازعات ، عقد مجالس الصلح بين الأسر والعائلات ، تحديد ما يدفعه الفلاح على أرضه ومحصوله من ضرائب ، إعادة المنسحبين فراراً من الضرائب والتجنيد والسمسرة ، إبلاغ المركز بالوافدين والطارئين على حياة القرية ، وتسليم من يلوذ بها من أرباب السوابق ..

أكره أن أفقد إنساناً مستقبله ، لكن الشجرة المريضة تطلب التقليم حتى تسترد عافيتها . طالبت باعتقال فرج خليل ، خوفاً عليه من نفسه . لإهمال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى ، ولأنه لم يدرك خطورة ابن شفيقة ، فقد صحا ــ بعد ثلاثة أسابيع ــ على فراره من سجن المركز ..

قال عبده الجمل :

الخلاء أصلح الأماكن للفرار من وجه السلطة ..

هكذا علمنا فرج خليل ..

عيدان القصب أو الذرة تتلاصق وتتكاثف ، فلا يمكن للمار بالقرب منها أن يرى ما بالداخل ، لكن العساكر قد يحيطون بالمكان . يلتقى فكا الكماشة دون أن ندرى . جعل قعداتنا فى مواضع نرى منها الخلاء ، أو نفر إليه . يريدون إعادته إلى سجن المركز الذى دخله ظلماً . العينان الحادتا النظر تتبينان القادم من أبعد مسافة . دار العائلة كثير الحجرات والنوافذ والأبواب ، والغيطان مترامية فى كل الأطراف .. لكنه علمنا أن الاحتماء بالدار خطر ، مهما رصد من الأعوان ، وتجسس . يكفى الحكومة أن تعرف مكانه ، فتحيط بالدار ، ولو بآلاف الجنود ، ومن مسافات بعيدة . أخذاً بالأحوط ، وحتى لا يفاجئنا حصار ، جعل لآدم وزة مهمة حمل زوّادة العيش البتاو وزلعة المش ..

كان بشير النحاس طلاعاً للنخيل . أوكل إليه تسلق أسوار البيوت والزرائب والأجران . ينط فى قلب المكان ،

يفتح الباب من الداخل . وكانت زريبة بهائم عائلة العماوى ، فى نهاية وسط الدار من الخلف . الدار تقع فى طرف قرية برقين . نقبنا جزءاً من الحائط ، وهربنا منه البهائم . وكان يحرص ، فلا يواجه أحدنا القبض عليه . إذا أردنا إحراق غيط ، أو مخزن ، أو دار ، سكبنا الجاز على جسد فأر ، وأوقدنا فيه النار ، وأطلقناه . وكانت السرعة ترافقنا فى كل ما نفعل . لحظات نبدأ فيها وننتهى . يفطن أصحاب الدار بعد أن يستقبلنا الخلاء ..

روى لنا فى هدأة المساء ، ودخان التبن أمامنا يطرد الناموس ــ عن والده الذى تركه طفلاً . السمارة اسم بلا أصل . الأصل عزبة زهران . السلطة وأهل العمدة بدلا الاسم . كانت الجريمة أبعد من أن تطوف بخاطره . عالمه الجسر وشط الترعة ودكان عم طلخاوى وقهوة صبحى طعيمة والعمل ــ أحياناً ــ فى غيط والده ..

قال له العمدة :

ــ اليد البطالة نجسة ..

قال فرج خليل :

ـــ ما تحتاجه أرضى أفعله ..

قال العمدة :

ـــ أريدك أن تعمل معى ..

وهو يشوح بيده :

ـــ لا أحب شغل الحكومة ..

غالب العمدة انفعاله :

ـــ وهل جاءت سيرة الحكومة ؟.. أريد أن تعمل خفيراً لأرضى ..

عائلة عبد الواحد أظهرت الخضوع للحكومات ، وعملت فى خدمتها ، فتوارثت العمودية . عائلة النخيلى أحق بالمنصب لأنها كبيرة العدد والمكانة ، وإن لم تمالئ الحكومة ..

قال فرج خليل :

ـــ ربما سافرت السنبلاوين وعملت هناك ..

علا صوت العمدة :

ـــ ترفض العمل معى يا ابن شفيقة ؟!..

كان قد مل الإهانة . أضافت الكلمة أعواماً من الحقد والغضب . طق الشرر فى عينيه :

ـــ أرفض أن أعمل معك يا عمدة ..

ألف اتهام العمدة بسرقة أى شئ يختفى من السمارة . وجد نفسه متهماً بما يجعله من الأثرياء ، وإن صعب عليه ـــ أيامها ـــ تدبير الوجبة التالية . جرب الإنكار فى البداية ، مدفوعاً بإحساس الظلم داخله . لكن رفض العمدة تصديقه ، وتصديق الناس اتهام العمدة ، والإيذاء المبرح فى حجرة السلاحليك قبل أن يصحبه الخفراء إلى سجن المركز .. ذلك كله دفعه إلى الصمت أمام الاتهامات ، تواجهه ، فلا يواجهها . لا ينفى ولا يؤكد . يثق فى تعاظم الإيذاء ، حتى لو قدم البرهان على براءته . لو استشهد بآخرين على أنه كان خارج القرية ، أو أتى بشهادة موثقة من المستشفى الأميرى ، تؤكد انتقاله إليها للعلاج من حمى مفاجئة ، أو من اشتداد الدوسنتاريا . من يتقدم بشكوى إلى المأمور ، يرسلها المأمور إلى العمدة . يبعث العمدة الخفراء ، فيأتون بصاحب الشكوى . يقضى ليلة أو ليلتين فى حجرة السلاحليك ، فلا يفكر فى كتابة شكوى ـــ مرة ثانية ـــ أبداً . وعندما كان

العمدة يسحب فرج خليل إلى حجرة السلاحليك ، ينهال عليه الخفراء ضرباً بالشوم ، وبكعوب البنادق ، فإن الابتسامة الساكنة لم تكن تفارق شفتيه . ربما انطلقت منه أنّة حاول كتمها ، لكن الابتسامة تظل فى موضعها ..

لم يكن فرج خليل سارقاً ، ولا قاتلاً ، ولا ارتكب ما يعاقب عليه القانون . ورث ثلاثة قراريط فى آخر زمام القرية من ناحية مديرية الشرقية . عاقه العمدة عن زراعتها ، وربما كان يطمع فى ضمها إلى أرضه . كان فرج خليل يتطلع إلى سقف وأسرة ، لكن تصرفات العمدة بدلت الأمر ، وجعلت الممكن مستحيلاً ، ودفعت فرج خليل إلى طريق لم يكن يتوقعها ، ولا أعد لها نفسه ..

قال الحاج سليمان عبد الواحد :

السمارة أسرة واحدة ، رغم تعدد العائلات ، لكن الفقسة الواحدة ربما تقضى على حقل بأكمله ..

الشاب التحق بالترحيلة ، ثم اخترته ــ لفتوته ــ خفيراً لفدادين العائلة . رفض اللئيم ، واختار طريق الجريمة

. المرأة شفيقة علمت ابنها السرقة . بدأ بالسرقة فى الحقول . تسلل إلى البيوت فى غيبة أصحابها . أخذ ما وصلت إليه يداه . أصبحت السرقة ــ فيما بعد ــ حرفته الوحيدة . لزمها العنف ، فسطا ، واختطف ، وضرب . كان قد دخل بيوت القرية ، مشى فى شوارعها وأزقتها ، تردد على قهوة صبحى طعيمة والغرز خارج القرية ، عرف أسرار السمارة وما تحويه . بلغت الحوادث حداً زائداً . أبلغت المديرية ، وطلبت اعتقاله ..

مضى أقل من شهر ، قبل أن يظهر على الجسر ، وفى يده البندقية ..

غرسنا فى طريقه الأعين والآذان . احتطنا لجريمته الأولى . أدركنا الهدف ، فوزعنا الخفراء على سراى العماوى ببرقين . تشمم الخطر ، لكنه أصر على التحدى . سرق ــ من زريبة السراى ــ جاموستين . زاد ، فنهب ــ فى الليلة ذاتها ــ دكان صفراتة بالسنبلاوين . أغراه السلاح والأعوان . فرض الإتاوات على الكبير والصغير ، قتل لأتفه الأسباب . تناثرت جثث ضحاياه داخل الغيطان ، قلّع المزروعات . خطف الماشية . سرق حتى خيام الترحيلة . لم

يجعل خاطراً لشيخ أو ولية . نصحته بأن يستغنى عن الليل ، ما يحمله من مخاطر قد تودى بحياته نفسها ، لكنه أصر أن يحمل بندقيته ، ويهدد خلق الله . وعدته بالمال ، ورجوته أن يتوب ..

قال فى إصرار عجيب :

– هذه طريقى ..

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

اشتهر عن ابن شفيقة أنه يتسلط على النفوس . رافق فراره من المركز ، بعد أقل من شهر ، حكايات لانهاية لها . قطع الطريق على المارة ، وفرض الإتاوات على أصحاب الدكاكين والمزارعين . حتى الأثرياء صاروا يتقون شره ، وربما لجأوا إليه للتخلص من خصومهم . وقيل إنه تحول إلى قاتل مأجور . هو خادم لمن يدفع . الفلاح لا يقتل بنفسه ، لا يستخدم السلاح حتى لو كان يملكه ، لكنه يستأجر قاتلاً محترفاً . واستأجرته عائلات معروفة لقتل خصومها . احتاطت حتى لا تدور ساقية الثأر . بدا ابن شفيقة كأنه

عفريت ، يمشى بلا صوت ، كالظل . لا أحد يراه فى النهار ، وإن شعر الجميع بقرب أنفاسه فى الليل . يفاجئ من يريد فى المكان الذى يحدده ، وفى الوقت الذى يحسن اختياره . ثم يجرى إلى غيطان الذرة . يختفى فيها ، من ورائه رجاله . تهتز شواشى الذرة ، ثم تسكن . أعمل حساباً عند نضج القصب أو الذرة . تترامى الغيطان مخابئ لمن يريد الاختفاء . وقد يختفى وراء كومة سباخ داخل الغيط الذى قلّعت زراعته . ثم تعددت جرائمه : القتل العمد ، والشروع فيه ، والضرب المفضى إلى الموت ، والاعتداء على المزروعات ، وتسميم المواشى ، والسرقة بالإكراه ، والحريق العمد ..

مد صبيانه فى أسباب حياته ، فاخترعوا ما لم يحدث ، وما يصدر عن ترهات الخيال . انطلقت الشائعات والحكايات التى لا يمكن تصديقها ، فى القهاوى ، والغرز ، والحارات ، وتحت الجسور ، وعلى المصاطب ، ومدارات السواقى ، وأمام الكوانين ، وأثناء الغسيل على شاطئ الترعة ، أو والأيدى تقذف بالعجين فى فوهة الفرن ..

لم يعد ابن شفيقة . صار شيئاً آخر متوحشاً . الرجال أمامه وحوله يحملون البنادق ، ونظرات الناس تتسلل إليه فى جلساتهم داخل قهوة صبحى طعيمة ، ودكان طلخاوى البقال ، والغرز والغيطان ، ومن أخصة النوافذ ، وعلى الجسر . وصل أذاه إلى أعشاش الطيور ، أعلى الأشجار ، وداخل ثقوب البيوت . ربما أشعلوا النار فى ذيل قطة ، وأطلقوها فى الغيطان .

دخل حجرة الطبيب مازن علام فى شارع المديرية بالمنصورة . دفع قيمة الكشف ، وانتظر دوره . غادر الحجرة وبيده لفة لا تستلفت نظراً . لعلها أدوية مجانية ، أعطاها له الطبيب مراعاة لظروفه . دخل الممرض ــ بالقلق ــ إلى الحجرة . صاح لرؤية الطبيب موثقاً من يديه وكتفيه على أرضية الحجرة ..

حتى الجرائم فى القرى البعيدة ، نسبت إليه . ربما نسبت إليه جريمتان أو ثلاث فى وقت واحد ، وفى أماكن متباعدة . يصدقها الناس . لا يناقشون صعوبة حدوثها ..

بدت الحادثة الجديدة ، كل حادثة جديدة ، لابن شفيقة ، أهم ما يتفاخر به الرجل من أبناء السمارة أنه عرف

تفصيلاتها ، رواها له واحد ممن شاهدوا الحادثة ، أو شاب التقى به فى غرزة على الطريق السريع ، أو فى أحد الموالد . ثم تبين له ــ بعد انصراف الرجل ــ أنه من صبيان ابن شفيقة ..

جعل من قهوة صبحى طعيمة أذناً يلقى فيها بأخبار يشغله انتشارها . تحيل الآذان ما التقطته إلى الأفواه ، تنقله على المصاطب ، وفى الأجران ، وداخل البيوت ..

قال بشير النحاس :

هس س س س ..

تنبه فرج خليل لهسيس شواشى الذرة ، واقتراب وقع الأقدام فى الأرض الطينية . كان الوقت ظهراً ، والصمت يحل على الغيطان . لا صوت إلا طنين الذباب وتكتكة وابور الطحين ، وعلى مدى الشوف من الأرض الترابية الفاصلة بين زراعات الذرة ، أشجار الكافور وشعر البنت ، وبيوت متناثرة ، تداخلت مع الغيطان أول القرية ..

نط من رقدته ، ونزل فى ساقية عائلة صفراتة المهجورة ، أول الغيط . ترددنا فى النزول ، فلما علا الهسيس ، ووقع الأقدام المقتربة ، نزلنا وراءه ..

قال لنظراتنا المذهولة ـــ عقب عودة الخلاء إلى اتساعه الساكن ـــ :

ـــ لا يتصور البوليس إننا نختفى فى ساقية مكشوفة !.

قال عم طلخاوى :

انتشرت حادثة ضربه للبكباشى عبد اللطيف الدمياطى . نمت الحادثة ، وتضخمت . أضاف إليها الناس خوارق ومعجزات . بدّلوا فى صورته ، فلم يعد هو ابن شفيقة الذى تابع الناس نشأته ، حتى صار رجلاً ، وشاهدوه فى الأسواق يبيع ويشترى ، ويتمدد فى قيلولته تحت شجرة الجميز آخر الغيط ، ويغادر المسجد مع العشرات ، بعد أداء صلاة الجمعة ..

وفد ناس من القرى المجاورة ، ليعرفوا المزيد عن الرجل الذى ضرب الحكومة ..

نسى الناس الاسم الذى أطلقه عليه العمدة . خشوا إذا اعتادوا نطقه ، أن ينطقوا به أمام فرج خليل . أنقذ أعوانه خلاّف أبو كيفه من يديه ، لما سأله مداعبا :

ـــ بماذا أناديك : فرج خليل ، أم ابن شفيقة ؟..

قال شحاتة عز الرجال :

أشار فرج خليل إلى بقرة انتفخ ضرعها باللبن :

ـــ هناك جاموس .. علينا در ألبانها ..

فهمت المعنى ..

قلت :

ـــ من تقصد ؟..

ـــ كلهم من خارج السمارة ..

اختار فرج خليل سلاحليك بيت العمدة لنأخذ ما به من أسلحة . لا بأس من أن نقطع أسلاك التليفون ، ونستولى

على الأسلحة . يتحول رمز السطوة عند العمدة ، إلى دليل مهانة ..

فيما عدا العمدة ، فإن فرج خليل لم يقف فى طريق أحد من أبناء بلدته ، ولا حاول السطو على بيت من بيوتها ، ولا ترصد لعابر طريق يسرقه . حفظ للقرية عاداتها وتقاليدها ، فهو ينقّط فى الأفراح ، ويعزّى فى المناسبات الحزينة ، ويشارك فى إطفاء الحرائق ، ويمنع مياه الفيضان من إغراق الغيطان والبيوت ، ويصالح بين المتخاصمين ، ويرد من يجرى المياه فى أرضه ويتخطى الآخرين . وإذا آمن الأعين الراصدة ، صلى الأوقات فى المسجد ..

قال الحاج سليمان عبد الواحد :

لم يعد سير ابن شفيقة فى طريق الإجرام ، لأنه يبحث عن المال ، وإنما أصبحت الجريمة دماً فى عروقه ، مثل المدمن الذى تلح عليه لحظة التعاطى . يدفع العمر حتى يهدأ . كان يعلم بالنهاية التى تترصد له فى نهاية الطريق ، لكنه لم يناقش الجدوى ولا المصير . بدت حياته إدماناً لا يملك

الفرار منه . صار مجرد ذكر اسمه ، يصب الفزع فى النفوس . تيقن الجميع أنه مغرق فى الشر ، لا ينتهى فيه إلى حد . إين شفيقة لا يخرج فى صميمه عن قاطع طريق ونهاب ولص . ما يزوق به أعوانه أفعاله ، يدركه الناس ، يتنبهون إلى حقيقته .

برقيـــــــــــة :

حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة الداخلية

بعد وافر الاحترام والسلام :

تشهد قرية السمارة ، مركز السنبلاوين ، مديرية الدقهلية ، منذ فترة طويلة ، سلسلة من الجرائم ، أدى إهمال المسئولين عن الأمن فى المركز إلى زيادتها واتساعها .. فالمجرم فرج خليل زهران كون عصابة من الأشرار ، راحت تقتل الأبرياء ، وتروّع الآمنين ، وتعيث فى الأرض فساداً ..

مبلغ علمى أن عمدة القرية الحاج سليمان عبد الواحد رجل فاضل ، يخرج الزكاة فى نهاية رمضان ، ويذبح الأضحية فى عيد الأضحى ، ويساعد فلاحى السمارة بالتقاوى والسماد ، وربما أقرضهم أموالاً يستردها بعد بيع المحصول . وقد حاول أن يمد يد العون والمساعدة لسعادة مأمور المركز البكباشى عبد اللطيف الدمياطى ، والسادة الأفاضل معاونيه .. لكن سعادة المأمور رفض اليد الممدودة . ثم اتهم العمدة بالتقصير ، ونشر بين الأهالى أنه قد طالب بتغييره حالاً ..

رأس الأفعى هو فرج خليل زهران . سعادة المأمور يعلم ذلك جيداً ، ويعلم أن قطع الرأس الشريرة يكفل عودة الحياة إلى قريتنا الوادعة ، المسالمة . ويعلم بالأماكن التى يتردد عليها فرج خليل ، لكنه يتقاعس عن أداء واجبه ، ثم يلقى بالتهمة على سواه من عباد الله ..

أملنا كبير – على يدى سعادتكم – فى عودة الأمن والاستقرار ، إلى السمارة التى كانت – على الدوام – موطناً للسلام والطمأنينة ..

مواطن من أبناء القرية

برقيـــــــة :

حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة الداخلية

بعد تقديم وافر التحية والاحترام

رافعه إلى سعادتكم ناصح أمين ..

فإنه لما كانت قريتنا السمارة ، التابعة لمركز السنبلاوين ، محافظة الدقهلية ، قد ابتليت ببعض المسئولين الذين فرضوا الظلم والإرهاب على أهلها ، فإننا نلتمس من سعادتكم سرعة التصرف ، حتى لا يخرج أهالى القرية عن شعورهم ، ويتصرفون على النحو الذى ربما يهز صورة الأمن ..

إن لمأمور المركز البكباشى عبد اللطيف الدمياطى مصالحه ، ولعمدة القرية سليمان عبد الواحد مصالحه .. وهى مصالح تلتقى مع ما تريده عائلة أو اثنتان فى المركز ، دون مراعاة لحق بقية المواطنين فى الحياة الحرة الشريفة ..

وحين أراد أحد أبناء قرية السمارة ــ المواطن فرج خليل زهران ــ أن ينبه المأمور والعمدة إلى خطورة ما يفعلان ، وجها إليه عشرات التهم الباطلة ..

فرج خليل زهران مواطن شريف ، يعمل ما فيه الخير لأهله وناسه . لم يؤذ أحداً ، ولم يرفع السلاح فى وجه أحد . التهمة الحقيقية التى يفخر بها أنه رفض الظلم لنفسه ، ولغيره ، فاعتبر ــ ظلماً ــ من الخطرين ..

نلتمس من سعادتكم إجراء تحقيق فى السهرات المشبوهة التى يقضيها مأمور المركز ، كل ليلة ، فى قصر صفراتة ، والثراء المفاجئ الذى حط على عمدة السمارة (زادت فدادينه من ثلاثة فدادين إلى سبعة وعشرين فداناً فى أقل من سنة واحدة) فهذا التحقيق سيكشف ــ بإذن الله ــ عن خيوط المأساة التى تحياها قرية السمارة ، ومركز السنبلاوين بأجمعه ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ناصح أمين

قال بشير النحاس :

الكذب حباله قصيرة ..

تأكد أهلنا فى السمارة من الفدادين التى أضافها العمدة إلى أرضه ، من السهرات المشبوهة التى يقضيها المأمور فى قصر صفراتة ، من الاستقرار الذى تواصلت به أيامهم ، دون أن يلقاهم فرج خليل بأذى .. تأكد الأهالى أن فرج خليل هو الأخ والابن والحبيب . هو الذى نعى الهم ، وأراد أن ينهى مظالم المأمور والعمدة ، ومن يحيون على قوت الناس..

سيطر الخوف فى البداية . تحذيرات العمدة ، وحملات عساكر المأمور ، وضعت الناس فى دائرة الخوف . الألسن التى تخشى حتى الهمس . النظرات الزائغة ، المتلفتة . الخشية من المشى ليلاً ، أو بلا رفقة . الاطمئنان إلى سلامة الأبواب والنوافذ . حتى الدور الطينية ، نام أصحابها بأعين مفتوحة ..

لكن الكذب حباله قصيرة . بتواصل الأيام ، فطن الناس إلى حقيقة ما يجرى . أهملوا سماع تحذيرات العمدة ،

ولم تشغلهم حملات عساكر المأمور ، وأضمروا النية فى مساعدة فرج خليل ..

خالط كلام الناس عنه إعجاب واضح . فرج خليل ابن السمارة . يمتد ظل تخويفه إلى قرى بعيدة . حتى السلطة تعمل له ألف حساب . كان تقدير الناس له ، لأنه هو الرجل الذى ضرب الحكومة . مما يشين ، فرض الإتاوات ، وحرق المزروعات ، والسطو على البيوت ، لكن الإعجاب بفرج خليل فاق ماعداه من مشاعر . لم يعد للناس إلاّ استعادة ما سمعوه عن فرج خليل . الحكايات المثيرة تهمس بها الأفواه فى المجالس على المصاطب أمام الدور ، وعلى الكيمان ، وفى القاعات ، وساعة الخبيز ، وفوق الأسطح عندما يتقدم الليل . اعتاد – فى سيره المفاجئ بين حوارى القرية : تغامز النساء ، وتطلع البنات من وراء الطاقات المواربة ، ومن فوق الأسطح ، وإفساح الرجال طريقه ، والقسم بأن ينزل ضيفاً على من يمر أمام داره . وكان إذا مر على قعود ، هبوا واقفين . وكان الناس يغضون النظر ونحن نمشى فى الزراعية ، أو فى الطريق السريع ، والخطاطيف تسحب البهائم وراءنا . ادعى الكثير من العائلات نسبة فرج خليل

إليها . يمنع اعتداءات الغرباء ، حتى لو كانوا من البوليس . لجأوا إليه ، يفصل فى الخلافات حول من يروى زراعته أولاً ، من يسد الماء عن جاره ، الماشية التى تأكل الزرع المجاور ، سرقة المحصول والماشية والطير ، عدم تسديد إيجار الأرض فى وقتها ، مزاح الشبان لما ينقلب جداً ، وكان يفض المنازعات بين الأسر ، ويعيد المرأة الناشز إلى طاعة زوجها ، ويرعى المطلقات والأرامل واليتامى ، ويعطف على المعوزين ، ومن يلجأ إليه فى حاجة ، أو مشورة ..

لما بدأت زراعة القمح والفول والبرسيم فى أواخر توت ، اختلفت عائلة صفراتة وعائلة النخيلى على الحدود التى ينتهى عندها بذر التقاوى . علت الأصوات ، واختلطت ، وتشابكت ، وامتدت الأيدى إلى الفؤوس والشوم . ظهر فرج خليل على الجسر ، فانقشعت السحابة الطارئة ، وعادت السماء إلى صفوها ..

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

تعددت حوادث ابن شفيقة دون أن نتمكن من اصطياده..

لم يكن يترك غيطان الذرة أو القصب إلاّ لفعل الأذى . يمضى مع صبيانه معظم الليل فى السرقة ، وإتلاف الماشية ، وحرق الزرائب . يختفون قبل ظهور الصبح . منع الناس أولادهم من الذهاب إلى المدارس ، ولزم المزارعون بيوتهم ، لا يغادرونها إلى الغيطان . ظلت الأرض على حالتها ، لا هى بائرة ولا مخضرّة ..

المشكلة أن الناس لم يتقدموا ببلاغات ضد ابن شفيقة . لم يبلغوا عن مكان وجوده ، مهما كان المكان قريباً ، ولا جرءوا على الشهادة ضده . لا أحد رآه وهو يسرق أو يحرق أو يدمر . لم يكن السبب إيمانهم بما يفعله . السبب هو الخوف ..

قال بشير النحاس :

عاش أهل السمارة فى ظل حمايته ..

لم يعد الناس يهتمون بإغلاق أبواب البيوت ، ولا بعدّ البهائم ، أو لم الدجاج والأوز من أمام البيوت ، أو التأكد من أن الحمام عاد إلى الأبراج . وعندما شب الحريق الكبير فعل فرج خليل ما لم يفعله أحد . تصاعدت النيران ، طويلة ، لامعة ، مختلطة بدخان كثيف . ارتفعت بأصوات كالتهشيم . أحالت البيوت والفراغ المحيط بها إلى لون أحمر . وانتشر الدخان ، فغطى بيوت القرية ، والغيطان . طالت النيران الدريس ، وبقايا الحطب فوق الأسطح ، وسعف النخيل ، وأجران الغلال . بدا كأن النيران طالت كل شئ . جرى الرجال والنساء بالقدور والزلع ، يحملون المياه من ترعة البوهية لإخماد النيران . فرض انتشار النيران نفسه ، فأسلم الجميع أقدامهم للجرى خارج القرية . فرج خليل وحده ظل ينادى ، ويصرخ ، ويحاول إطفاء النيران بما وسعه ، ويعيب على الذين جروا ما فعلوا .

لم يكن الحريق فى موسم الحطب ، فهو غير مدبّر إذن . ربما أحدثته شرارة كانون أو فرن ، أو عقب سيجارة فى موسم الحطب . يسهل إشعال الحرائق بكور مشتعلة على كومات الحطب المكدسة فى أطراف الغيطان ..

قال سليمان عبد الواحد :

لم يكن الحريق وليد ذاته ولا مصادفة . جريمة أعد لها ابن شفيقة ، ونفذها صبيانه . رفضت القرية جرائمهم ، ابتزازهم وسطوهم وسرقاتهم وإتاواتهم . عاقبوها بالحريق . ظهر أمام النيران المشتعلة ، ليبرئ نفسه من اتهام الأهالى ..

صارحنى الخفير النظامى صلاح كحيل بأن ابن شفيقة عرض عليه راتباً يفوق أضعاف ما يتقاضاه من الحكومة ، لينضم إلى صبيانه ..

قال بشير النحاس :

الغريب الغريب ، السر الذى يجهله الجميع ، أن فرج خليل لم يسرق فقيراً ، ولم يقتل . رفض تنفيذ عملية ناجحة ،

لأنه سمع بكاء طفل من داخل البيت الذى نعد لدخوله . اقتصرت سرقاته على الأغنياء . الرجل يترك الثور يموت دون أن يفكر فى توزيع لحمه على الفلاحين ، فلماذا ؟.. السلاح فى أيدينا لمجرد التهويش . الشائعات والحكايات الغريبة تكفلت بقتل المئات . نسب إليه ما يصعب حصره من حوادث إتلاف المزروعات ، وتسميم الحيوان ، وهتك الأعراض ، وإزهاق الأرواح . لم يكن يثيره إلاّ اتهام القتل . القتل كبيرة ، حرام فعلها . خلقنا الله ، وهو الذى يميتنا . إذا رفع أحد سلاحاً ، أمرنا فرج خليل بتركه فى حاله ، والعودة . السلاح للدفاع عن النفس ، لا لأذية الآخرين . طرد يحيى البدوى من بيننا لأنه أطلق ــ ليلة ــ عياراً فى الهواء ..

قال :

ــ لا أحب التهور .. ربما أطلقت عيارك الثانى فى المليان !..

كان يكتفى بنظرات ثاقبة . فيتضاءل من هو أمامه ، وينكمش فى نفسه . وربما قضى بنظرته على إرادة خصمه ، تقتحمه ، وتشل حركته ، فلا يقوى على الفعل ..

الأدهم صديقه ، وإن لم يتعرف إليه شخصياً . أنكر الخط وعواد وسليم . سفاحون يقتلون ربما بلا داع . لم تنقذهم آلاف الأفدنة من غيطان القصب والذرة ، ولم ينقذهم الجبل ..

قلت :

ــ الأدهم كذلك لم ينقذه الجبل ..

قال :

ــ الخيانة وحدها هى التى قتلت الأدهم ..

ثم بلهجة مداعبة :

ــ قتله صديقه ..

وحين اكتشف فرج خليل أن صبرى الحاتى أخفى فى ثيابه معظم ما سرقه ، لم يضفه إلى ما جمعناه ، واكتفى بطرده . .

قال وهو يتأمل خطواته المتباطئة :

ــ هذا التصرف عقابه القتل فى الجماعات الأخرى ..

أضاف للوقفة الخائفة ، المتذللة :

ــ لن أنالك بأذى .. إلاّ إذا خرج لسانك من فمك !..

السمارة ليل طويل

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

كان ابن شفيقة أخوف من أن يخوض معركة . يرفع سلاحه للترويع ، فيحصل على ما يريد . إذا واجه سلاحاً ، يعد صاحبه نفسه لخوض معركة . همس لأعوانه بالانسحاب ، لا يشغله إلاّ أن يبتعد خوفاً أن تصيبه رصاصة . كان يدعى أنه يرفض القتل . ولم يكن ذلك صحيحاً . قتلت رصاصاته الكثيرين بالغدر ، ومن لا يحملون السلاح ..

احتمى خالد النشوقاتى ببيته . أطلق ابن شفيقة رصاصة حارقة على الحطب المكوم فوق سطح بيته ، فاشتعلت النيران . أضطر الرجل للخروج بأسرته ، فاستقبلتهم الرصاصات القاتلة

قال صبحى طعيمة :

الشيخ التهامى رزق ليس مجرد إمام لمسجد السمارة ، فهو يتولى الإشراف على تعليم الأطفال بالكتّاب ، وهو قارئ القرآن فى المناسبات ، والمأذون الذى يحرر عقود الزواج والطلاق ، وإن اعتز بأنه لم يوافق على طلاق زوجين من السمارة ، إلاّ بعد أن بذل ما وسعه لتأكيد أن الطلاق هو أبغض الحلال ..

أكد البكباشى عبد اللطيف الدمياطى أن ابن شفيقة قد اشترى الشيخ التهامى رزق ، فهو قد فاجأ المصلين فى خطبة الجمعة بما لم يتوقعوه . عاب عليهم ثراءهم وما يكنزون . ذكّرهم بالموت والحساب والعقاب ، وطالبهم بالتوبة ، ورد الحقوق إلى أصحابها ، دون أن يحدد من هم أصحاب الحقوق ..

نفى العمدة أن يكون الشيخ التهامى رزق قد باع نفسه ، فهو رجل فاضل ، تعلم فى الأزهر ، ودرس العلم على أيدى متفقهيه ..

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

أحطنا السمارة كالقيد . عساكر بوليس وهجانة ومخبرين سريين ومرشدين . أبطلنا وابور الطحين ، ومنعنا دخول مواد التموين ، وحظرنا التجول . فتشنا البيوت والدكاكين وفوق الأسطح والأفران ، وقهوة طعيمة ودكان طلخاوى البقال . حتى المسجد فتشناه ، ثم منعنا التردد عليه ..

أسلم ابن شفيقة نفسه فى اليوم الرابع ، بلا مقاومة . رحلناه ـــ عصر اليوم ـــ إلى جبل الطور ..

قال عم طلخاوى :

حين طلبت منه أن يروى ظروف عودته من صحراء سيناء ، واجتيازه القناة من الضفة الشرقية إلى مدن الضفة الغربية ، اكتفى بكلمات مدغمة ، ثم صمت ..

عرفت أنه يريد تناسى ما حدث له ، منذ فر من المعتقل ، حتى وصل إلى السمارة ..

قال بشير النحاس :

روى لنا ظروف عودته من الطور إلى السمارة . المساحات الخالية بلا أسوار . حتى أبواب العنابر بلا أبواب . لا شئ إلاّ الرمال ، وتقلبات الجو ، والعقارب ، والحراس المتباعدين ، والقيود التى تؤذى القدمين إن سارع فى خطواته ..

خلّف كل شئ وراءه ، ومضى نحو المجهول . توقف عند أول بيت لبدوى . دفع ما معه لقاء تكسير القيود ، ثم واصل السير فى طريق ، حددها له البدوى . لا يشغله التعب ، ولا تشققات القدمين ، ولا صراخ البطن ، حتى لاحت الضفة الأخرى ..

ظل ممدداً على السرير ، لأيام ، يعانى تورم قدميه ، وتسلخهما ، وتشقق شفتيه ، واكتواء جلده الملتهب بملح المياه فى القناة . قضى أياماً يعالج قدميه ، ويريح جسمه . ثم فاجأنا العمدة بالسطو على زريبة بيته ، وسحبنا الماشية إلى أسواق بعيدة ، فبعناها ..

مذكـــــــــــرة :

حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة الداخلية :

تحية طيبة ، وبعد

يتشرف برفعه إلى سعادتكم البكباشى عبد اللطيف الدمياطى ، مأمور مركز السنبلاوين

فبالنسبة للحوادث المؤسفة التى يشهدها المركز منذ فترة ، والتى أمرتم – حرصاً على توفير الأمن والاستقرار – بضرورة وضع حد لها ، فلا يخفى على سعادتكم أن المدعو فرج خليل زهران ، الشهير بابن شفيقة ، ليس هو السبب المباشر لتلك الحوادث المؤسفة . إنه أداة منفذة فى أيدى عصابات الشر والأجرام ، بالإضافة إلى بعض الأسباب الأخرى التى أرجو أن تأذنوا لى فى إجمالها بما يلى :

– انتشار الأسلحة فى أيدى الأهالى ، وفى أيدى أبناء السمارة بالذات ، وهو ما يعد مسئولية مباشرة لعمدة القرية ، الذى أرجو أن تأمروا بعزله ، واختيار عمدة آخر بدلاً منه ..

ـ إحجام المواطنين عن الإرشاد على الأماكن التى يتردد عليها فرج خليل زهران ، خوفاً من الانتقام ..

ـ إن الاعتماد على إيفاد حملات البوليس إلى المنطقة ، لإقرار الأمن فيها ، ليس هو الحل الأمثل ، لأنه يقلل من قيمة المركز فى نظر الأهالى . والأفضل أن يدعم المركز بما يجعله أقدر على حماية الأمن ، وردع المجرمين ..

إن المحافظة على الأمن فى المركز هى ـ أولاً ـ مسئولية المركز نفسه ..

ـ انتشار الأسلحة المرخصة ، وغير المرخصة ، فى أيدى الأهالى ، وأهالى السمارة بالذات . وإذا كان من مسئولية المركز أن يلقى القبض على حاملى الأسلحة غير المرخصة ، فإن القانون يمنع مصادرة الأسلحة الأخرى ، المرخصة ، وكلها أسلحة متطورة ، بالقياس إلى أسلحة البوليس ..

لذلك ، فإنى أرجو التكرم بالموافقة على مصادرة كل الأسلحة ، لأن بعض الأهالى يساعدون ابن شفيقة ـ للأسف ـ بسلاحهم المرخص ..

قال صبحى طعيمة :

صحوت على طرق الباب . ضابط وثلاثة عساكر ..

قال الضابط :

ــ أين المسدس ؟..

قلت :

ــ أى مسدس ؟..

صرخ :

ــ مسدسك ..

ــ أنا لا أتعامل بهذه الأشياء ..

زغدنى فى كتفى :

ــ نحن نتعامل بها ..

قلت فى عدم فهم :

ــ ماذا تريد منى ؟..

ــ المسدس ..

أشار الضابط ، فاقتادنى العساكر إلى خارج الدار ..

كان قد سبقنى ــ فى البوكس ــ رجال وشباب من السمارة . ميّزتهم ، وتبادلنا الأسئلة ، وطرحنا التوقعات ..

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

وافق وكيل الداخلية على كل ما طلبت . وضعت شروطاً واضحة ، ومحددة ، يقابلها الاستقالة . كرامتى كفة الميزان الراجحة . هذا هو قرارى عبر رحلتى الوظيفية ما بين كفر الدوار ودمنهور وبنى سويف والبلينا ، حتى أصبحت مسئولاً عن الأمن فى مركز السنبلاوين . الأهالى طيبون ، مسالمون ، يعملون للبوليس ألف حساب . إبن شفيقة نبات شيطانى ، لابد من اجتثاثه . وزع القروش من آلاف الجنيهات التى سرقها ، على أهل السمارة ، فاستمالهم . خدعهم بحيل يصعب تصديقها ..

بدأنا بجمع السلاح ..

أذهلتنى الأرقام . أجاد اللعين توزيع السلاح فى بيوت الأهالى . حتى هؤلاء الذين أعلنوا كراهيتهم له . حتى الغلابة والمنكسرين والذين لايعنيهم سوى قوت يومهم . حتى الشيخ التهامى رزق صادفت أيدى العساكر طبنجة تحت وسادته . زاغت عيناه ، وتلعثم ، وأنكر . علقت رجلاه فى

الفلقة ، فاعترف . إرهاب ابن شفيقة لهم عذر سخيف . هل حول القرية إلى عصابة ؟.. هل دانوا بالولاء للجريمة ؟..

أمرت ، فظلت الدوريات داخل القرية طيلة اليوم بكامله . أفراد ، وسوارى ، وسيارة ، وضباط . أطلقت المخبرين والمرشدين ، يسألون ويتقصون ويطيلون النظر إلى الوجوه ، وإلى ما فى الأيدى . زادت الأعين المبثوثة من انتباهها : من يحيد عن الطريق ، ما بين بيته وعمله ، من يحادث الآخر همساً ، من يجلسون على الجسر بلا هدف ، من يترك ــ أو يصل ــ بيته ليلاً . التردد فى الإجابة يعنى إخفاء ما لا ينبغى إخفاؤه . دارت الفلقة على أرجل الكثيرين . السؤال المحدد : أين يختفى فرج خليل . الأسطورة التى أجاد أعوانه نسجها ، البشاعة والقتل والتدمير ، الانتقام يتواصل حتى أصغر الأبناء ، المقابل المجهول يتحدى الاعتراف بضغط التعذيب ..

خطب الشيخ راشد الوكيل فى صلاة الجمعة : التستر على المجرم عقابه فى الدنيا والدين . تناثر عقد المصلين ، حتى ذابوا . استوقف العساكر مصلياً ، وآخر ، وثالثاً ، ورابعاً ، ثم توقفوا . زاد العدد ، فشمل كل المصلين ..

أرفض اليأس . ابن شفيقة هدف ، رفضت التخلى عن بلوغه ..

قال بشير النحاس :

حط الجراد على القرية . مئات العساكر ، والخوذات ، والبنادق ، والدوريات الراكبة ، والمترجلة ، والأسئلة المتوالية ، والضرب ، والتعذيب ، والحبس . اختفاء فرج خليل مسئولية الأهالى . كانوا ــ فى الحقيقة ــ يعرفون طريقه ، وأين يقضى الليلة ، وأين يسدد ضربته غداً . المساعدات تواصلت ــ بالإعجاب والحب ــ من كل بيت . إخفاء السلاح . تقديم صوانى الطعام . توصيل الرسائل . مراقبة تحركات البوليس ...

جمعوا الأهالى بالعشرات . حتى النسوة والعجائز والأطفال . دارت السيور والكرابيج والشوم . السؤال الذى يعرف إجابته الجميع ، ظل ــ رغم التعذيب ــ معلقاً بلا جواب ..

طق الشرر فى عينى المأمور ، وهدد بالمزيد . راقب بنفسه تفتيش القرية . قذف العساكر محتويات كل بيت خارجه . دسوا العصى فى كيمان السباخ والغلة ، ونثروا عيدان الحطب . عثروا على بعض قطع السلاح التى أخفاها الأهالى . أنكر الجميع معرفتهم ، حتى بمصدر السلاح ..

باع الأهالى بهائمهم ، أو استدانوا ، واشتروا أسلحة ، أخذها مأمور المركز ليتجنبوا أذاه . كلما حصل المأمور على أسلحة ، ذاع صيته ، وأكد قدرته على جمع السلاح ..

أوعز المأمور للشيخ راشد الوكيل ـــ وهو غريب عن القرية ـــ فدعا المصلين فى صلاة الجمعة ، إلى الإرشاد عن مكان فرج خليل . رفضوا سماع الخطبة . ورفضوا الصلاة وراءه . زاموا ، وتململوا ، وغادروا المسجد . واجهوا ـــ قبالة المسجد ـــ كعوب البنادق والشوم . مع ذلك ، ظل مكان فرج خليل سراً فى صدور الجميع ..

المعلم يلقى نصائحه

قال سليمان عبد الواحد :

هل أصبح ابن شفيقة أسطورة ؟..

إخفاق المأمور تبدى فى استدعائه لمئات العساكر من البندر . أحاطوا بالسمارة ، وجاسوا خلالها . قلبوا عاليها أسفلها . طالت أيديهم كل شئ . لم يرعوا حرمة ولابيتاً . دسوا السلاح فى بيوت الأهالى . بات الجميع ، الجميع ، شركاء لابن شفيقة فى جرائمه . العصابة ثلاثة أشقياء ، وربما أربعة . المأمور أعلم الناس بالأماكن التى يترددون عليها ، وأين يقيمون . دس السلاح للأهالى ، ليثأر من شماتتهم . إبن شفيقة اللعين جعل منه أضحوكة . فاجأه ـــ بمفرده ـــ على الجسر ليلاً . جرده من ثيابه ، واختفى . سرق مسدسه الميرى من فوق مكتبه . اعتادت السمارة مالم تكن تعرفه : دوريات البوليس ، وصيحات الهجانة تشق ظلام الليل ، وحوارى القرية خالية ، وإن شغت الحياة داخل البيوت ، وفوق الأسطح ..

قال شحاتة عز الرجال :

الشهامة ساقت فرج خليل إلى السجن . ضبطه البوليس وهو يغادر بيت الشيخ التهامى رزق ، المطل على داير الناحية . أحزنه ما جرى للشيخ على يدى البكباشى الدمياطى ، فعاده . قدمه المأمور إلى المحاكمة بتهم كثيرة : القتل ، والشروع فيه ، ومقاومة السلطات ، والسلب ، والنهب ، وإتلاف المزروعات ..

دعا البكباشى الدمياطى أهالى السمارة للإدلاء بشهاداتهم . رفضوا ، وتركوا القرية ، قبل موعد المحاكمة بأيام ، حتى لا يأخذهم البوليس ..

قال الشيخ التهامى رزق :

امتلأت قاعة المحكمة بمن يعرفون فرج خليل ، ومن دفعهم الفضول لرؤيته . لم تعد إلاّ أجسام متلاصقة . أما الذين لم يجدوا أماكن للجلوس ، فقد أمر القاضى بإخراجهم من القاعة . وقفوا فى القاعة الداخلية ، وأمام ساحة المحكمة ، يحاولون متابعة ما يجرى ..

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

الله حى !.. الله حى !..

تصاعد النداء ، تعالى ، تشابك ، امتد . لاأذكر من كنت أحادثه . المكتب ــ دائماً ــ يشغى . أدركت اللعبة . أغلقت باب الحجرة ، ورفعت من صوتى . لو أنى أمرت بالصمت ، فربما قامت خناقة . ذلك ــ بالقطع ــ ما كان ينشده . حلقة الذكر باب جهنمى إلى الهرب . الداهية يفلت من خرم الإبرة . علت الصفافير فجأة . أشارت الأيدى إلى الدائرة الواسعة فى جدار العنبر . ضبط المثقاب الذى لا أعرف كيف سرّبه . اسم الله دارى فعلة الشيطان ..

صرخت :

– عاوز تهرب يا ابن شفيقة ؟!..

قال بشير النحاس :

ضايقته أفعال الدمياطى . تحاشى مواجهته ، وسلط العساكر عليه . هز كتفيه لكل شئ . بادل العمدة تسميته ،

فجعل أمه شرموطة . العساكر ينادونه يا معلم . الحجز يرقد في حضن فتوته . الخلان أوفياء .. لكن الجو حامت في سمائه الغربان . لم يقبض عليه أحد ، فلماذا التباهي ؟..

أدخلنا الثقاب ، وأقمنا الذكر . اتسع الثقب حتى جاوز جسم الإنسان . أشار ، فصرخنا . وجه الدمياطي مثل الليمونة :

ــ هل آذيتك ؟..

قال :

ــ وهل تستطيع ؟..

ــ فلماذا ؟..

في لهجة باترة :

ــ أريد أن أترك المركز حالاً ..

كان عبد اللطيف الدمياطي على ثقة أن فرج خليل يستطيع أن يترك المركز من الباب العمومي ..

قال البكباشي عبد اللطيف الدمياطي :

قال ابن شفيقة :

ـ ليس فى السجن ما يضايقنى ..

وعلا صوته :

ـ ولا يوجد من يضايقنى ..

وفاضت عيناه بنظرة شر :

ـ سأخرج لسبب آخر ..

وأخرج من جيبه صورة ولده الصغير ..

أمرت ، فنقله العساكر إلى سجن البندر ، واسترحت من شره ..

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

لم أصدق أن ابن شفيقة يهرب من الزنزانة المصمتة ، فيما عدا كوة ضيقة لا تنفذ منها أصابع اليد ..

كيف ؟ ومتى ؟ ومن الذى ساعده ؟..

قال بشير النحاس :

لم يكن فى بال فرج خليل أن يفر من سجن المديرية . تحديه لعبد اللطيف الدمياطى هو الذى أملى عليه قراره . خطط ، ودبر ، وهمس لمن يريد الاستعانة بهم . قرر أن يولى للمكان ظهره ، وينطلق إلى المجهول . طمأن نفسه ــ فى البداية ــ بأن الأعوام الثلاثة تنتهى فى لمح البصر . لا شأن له ــ بعدها ــ بالعمدة ولا المأمور ، ولا حتى دنيا الليل ..

قال الدمياطى بلهجة متوعدة :

ــ حتى لو انتهت مدتك ، فسأعتقلك بمقتضى قانون الطوارئ ..

لا فائدة إذن . والأعوام الثلاثة قد تجر أعواماً أخرى ، فلا يغادر السجن إلاّ إلى القبر . واتخذ ــ فى الليلة نفسها ــ قراره بالهرب ..

رجوناه ــ حتى لا يبتعد عنا ــ أن يأوى ــ لفترة ــ فى أحد البيوت الآمنة بالمنصورة . رفض ، وعدد الأسباب : المنصورة مثل الحق ، والناس يتابعون حكاياته ، ويضيفون

إليها ، والبوليس يعنى ــ أولاً ــ بالمدن القريبة . قرر أن يسافر إلى القاهرة . يجد المختفى فى المدن الكبيرة عوامل تساعده على نجاح مهمته ، أكثر مما يجده فى المدن الصغيرة . تدفق الحياة فى المدن الكبيرة ، واختلاط الناس ، لا يجعل الغريب يستلفت النظر ، عكس ما يحدث فى القرية ، أو فى المدينة الصغيرة ..

صحبته إلى القاهرة ..

نصحناه أن يطلق لحيته ، فرفض . قال :

ــ التنكر ألاّ أبدو شاذاً عما ألفه الناس . إنهم فى المدينة يحلقون لحاهم ، وربما شواربهم .. فلماذا لا أصبح قطرة فى محيطهم .. لماذا أخالف المألوف ؟..

وقال :

ــ إن أول ما يلفت النظر ، كل ما هو شاذ من منظر ، أو ملبس ، أو حركة ، أو عادة . البساطة هى خير أساليب التنكر .

ورفض أن يرتدى نظارة سوداء :

ـــ حتى لو ادعيت العمى ، فسأثير انتباه إنسان .. من بين النظرات المشفقة ، ربما تدقق عين لئيمة ، عارفة ، فتعرف حقيقتى ..

حين اختار لإقامته فى القاهرة شقة مفروشة ، تطل على ثكنات قصر النيل ، وعلى ميدان الإسماعيلية من ناحية شارع سليمان باشا ، خاطب الدهشة فى عينى سلامة حسبو :

ـــ لو أنى أقمت فى حارة ، أو شارع شعبى ، فسيفطن البوليس إلى مكانى ..

أفاض فى شرح ما غمض عنا : الناس فى الأحياء الشعبية يميلون إلى الاختلاط والصداقة . يسقطون الحواجز ، ويسعون إلى التعارف بمجرد أن يأتى الوافد الجديد . ينقبون عن أصله وفصله . ناس الأحياء الراقية ، كل واحد فى حاله . يغلق عليه بابه ، لا يحادث الآخرين ، ولا يحادثه الآخرون : صباح الخير يا جارى .. انت ف حالك وانا فى حالى .. حتى الصباح لا يلفظه اللسان إلا لضرورة ..

مع ذلك ، أذاع عن نفسه ـــ كما روى لنا ـــ بضعة أخبار ، إشباعاً لفضول الناس : إسمه ، وبلدته ، وصناعته ، وسبب سكناه . حرص على تلك المعلومات جيداً . وعلّمنا

أن الاختلاف فى الأقوال والروايات التى تذاع عن الإنسان ، تجرّ مصيبة ..

أثناء سيره ، يرفع رأسه إلى أعلى ، ويرمى بنظره إلى أبعد مدى ، يشمل رقعة كبيرة من الأرض فى لحظة واحدة . فهو يلم بشخصية كل فرد من السائرين واحداً ، واحداً ، قبل أن يقتربوا منه . يسخر من الذى يسرع فى خطاه ، ولا ينظر إلاّ إلى الأرض . فى عدم نظره إلى الناس ، لا ينظر الناس إليه ..

من نصائحه : التزم الحركة الطبيعية ، المألوفة . لا تسرع ، ولا تبطئ ، ولا تلتفت سريعاً ، ولا تحدق بلا سبب ، ولا تبتعد حتى عن من ترتاب فيهم ، وإلاّ ضاعفت من شكوكهم . وإذا مسحت وجهك بالمنديل ، فإن الإطالة تبعث على الشك . إذا سرت فى الشوارع ، لا تتردد فى مشيتك . وإذا ركبت تراماً ، عانيت زحام الأوتوبيس ، خالطت المارة ، فلا ترتبك . كلم الناس وضاحكهم ، وكن طبيعياً . فإذا اشتبهت فى أمر إنسان يطيل التحديق ، أو يطيل الإنصات ، لا تأبه . سرعة التحول من حال إلى حال تثير الريبة ، وتؤكد الظن . وحين يسألك أحد عن اسمك ، وتقول

له ــ مثلاً ــ محمد على حسن ، فإنه يسأل : والنقب ؟ ــ يعنى اللقب ــ وربما أجبته : هذا هو اسمى . ويعلو صوته بالدهشة : أليس لعائلتك لقب ؟ . تفطن إلى ما يقصده فتقول : السنبلاوينى أو الدمياطى أو جاد الرب . لقب العائلة مهم . على الأصل دوّر كما يقول المثل . حتى لو كنت ضعيفاً ، لو أن أعماقك هزّها الخوف ، لا تعرى ذاتك لخصمك . غالب ضعفك ، اكتمه . إذا أحس أنه الأقوى ، لابد أن يحاول فرض قوته عليك . يؤذيك بالقول ، أو بالفعل ..

علمنا ألا نغفل ، فننسى أسلحتنا . السلاح هو روح من فى ظروفنا . حتى فى النوم ، فإن السلاح يجب أن يدس تحت الوسادة ..

زاد البوليس من حصاره ، فاشتد فرج خليل فى التخفى . استأجر الشقق المفروشة ، وتسطّح فوق القطارات ، ونام فى الحدائق ، وذاب فى الموالد ، وتطوح فى حلقات الذكر ، ودخل دور السينما ، لا ليشاهد ، وإنما لينام ..

غير زيّه أحياناً ، فتناقض الثياب صورة الحياة فى المدينة الكبيرة . ارتدى الجلابية والجبة والبذلة والأفرول ، لكنه لم يخرج عما ألفته أعين الناس ..

لما ظهر فرج خليل ــ ثانية ــ فى السمارة ، أخذتنا المفاجأة . تصورنا أنه سيطيل إقامته فى المدينة الكبيرة . غالبنا التردد فى العودة إلى حياة الليل . أزمع شحاتة عز الرجال العودة إلى قريته تمى الأمديد ، البعيدة عن السمارة ..

قلت :

ــ إذا أردت النسيان ، فهل ينسى البوليس ؟..

ظهر فرج خليل فوق رءوسنا ، فذوت الأحاديث ، واستعدنا عافيتنا ..

كان الغروب قد حل ، وخلت الغيطان من البشر والبهائم ، وتعالى دخان الكوانين . وكانت النسائم تهز شواشى الشجر والنخيل ، وأعواد الأرز الدقيقة ، فى الغيطان الممتدة أمامنا إلى نهاية الأفق ، وروائح النعناع والريحان تأتى إلينا من حديقة دار صفراتة القريبة . وثمة أصداء لصوت وابور الطحين ..

قال :

ــ كان لابد أن أعود ..

قلت فى إشفاق حقيقى :

ــ البوليس لم يخفّف حملاته ..

قال :

ــ شوقى إلى السمارة أقوى من خطر البوليس ..

قال سلامة حسبو :

ــ هل نعود إلى حياة الليل ؟..

قال فرج خليل :

ــ يبدو أن حياة الليل هى قدرنا ..

قال بشير النحاس :

أصبح اختفاؤنا ــ إن استعصى الخلاء ــ داخل نباتات التيل والكتان وعباد الشمس ، وفوق الأشجار على حواف الترع والغيطان . البوليس يجعل همه البحث فى الزراعات العالية ، فلا يفطن إلى أماكن اختفائنا ..

لم يعد يفلت نظرة متابعة لمخبر أو مرشد . يعرفهم بالاسم ، يشدد علينا فلا يفلت من رقابتنا وافد جديد إلى المركز ، أو رجل من السمارة والقرى المحيطة يستدعونه

إلى داخله . لا نتوقف متابعتنا حتى نطمئن إليه ، أو نخضع تصرفاته لمراقبتنا . لا نستثنى أحداً ، ربما أقدم على خيانته ، أو التآمر من وراء ظهره ..

بهية الحلوانى

قال الحاج سليمان عبد الواحد :

أنت تستطيع أن تحكم على المرأة ، بمجرد أن تراها فى الطريق ، تتابع خطواتها ، سريعة لاهية ، أم هادئة متزنة ، تتلفت فى سيرها ، تدقق فى ملامح الآخرين وتصرفاتهم ، تغطى رأسها بما يخرج عن المألوف ، أو لا تغطيه على الإطلاق ، تبادل أحد الرجال ــ حتى لو كان فى سن أبيها ــ صباح الخير .. صباح النور .. كيف حالك ؟.. كويسة ! .. النظرات لابد أن تتجه ــ متغيرة ــ إليها ، تلحظ جرأتها وما تخفيه ..

لم تكن بهية الحلوانى امرأة مثل بقية النساء . عرف عنها قدرتها على استمالة الرجال . حتى لو كانوا متزوجين . تضع عينها ، فلا ترفعها حتى تغوى الرجل . كان أبرز ما يميزها قامة أقرب إلى الطول ، وعينان سوداوان ، واسعتان ، وإذا فكت شعرها وهى واقفة ، انسدل على ظهرها إلى الساقين ..

كانت غجرية الأصل . هجرت أهلها ، واستقرت فى القرية لما أتى بها عبد الصبور السحرتى ـــ شيخ الخفراء الراحل ـــ من البندر ، زوجاً له . ظل طبعها فى دمها ، فلم تستطع إخفاءه . سيطرت على زوجها ، حتى مات ..

صرفت على حياتها من التردد على بيوت المستورين . تعجن ، وتخبز ، وتطبخ ، وتغسل الثياب والمواعين ، وتكنس ، وتطعم الطيور ، وتجمع الحطب ، وتجلب الماء من ترعة البوهية ، وتشعل النار فى الأعواد التى أفسدها ماء المطر ، وتربط البهائم السايبة فى السلايب ، وتسقيها ، وتقدم لها العلف ، وتعد الشاى والقهوة لأصحاب البيوت وزوارهم . أذكر سيرها خلف البهائم ، تجمع الروث ،

تصنعه جلة مع القش أو التبن ، تجففها فى الشمس ، ثم تبيعها وقوداً للأفران ..

قيل إنها عرفت مصادقة الشبان قبل أول حيض لها . رويت حكايات كثيرة عن اختلائها بشبان السمارة ، داخل غيطان الذرة . تسبق فى الدخول . يتبعونها ، واحداً بعد الآخر .

ضبطها شيخ الخفر توفيق إسماعيل وراء الكومة ، مع شاب من القرية ، أو أكثر ، يحتمون بالظلمة ، بعيداً عن الأعين . أطلق عياراً فى الهواء ، فسبقت من كانوا معها بالفرار . ميزها ــ كما روى لى ــ من فستانها المذيل بكرانيش . كانت ترتديه فى الأسواق القريبة ، طيلة النهار الفائت . شوهدت مع رجال تحت ماكينة الدراس . تركتها لأنها امرأة ، ولية ، يكفى نيران الأقاويل فى هشيم آذان القرية ، بينما زف الرجال الغرباء عن السمارة بعلقة ، إلى الناحية المقابلة ، التابعة لمديرية الشرقية ..

كانت تشير إلى ابن شفيقة فى جلسته على قهوة صبحى طعيمة ، ثم تختفى . تغادر البيت ــ بعد دقائق ــ

وهى ملتفة بملاءتها السوداء . تميل ناحية المدق المفضى إلى الغيطان . يستأذن فى لهوجة ، ويتبعها ..

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

حفيت قدما بهية الحلوانى فى الموالد والأذكار والمدن والقرى والأسواق ، ترافق فرق العوالم . تهز خصرها إلى جوار المغنى ، أو ترقص بمفردها . ثم استقر بها الحال فى السمارة . تكنس ، وتغسل ، وتغربل القمح ، وتقرص العجين ، وتخبز فى دور القرية ، وتطعم الدجاج والحمام والأرانب . وكانت تملأ الأزيار من الترعة ، وتنظف الحواصل ، وتفرش الرماد تحت حوافر الجاموسة ، وتكوم السباخ فى ركن الزريبة ، تحمله على الأتان ، وتتبعه إلى الغيط . وتحمل قفف الغلة ، وتجمع الجلة من وراء البهائم ، تجففها فى الجرن ، وتبيعها فى سوق الاثنين . لم تكن تملك مورداً آخر ، إلاّ إذا سبقت أحد الشبان داخل غيط ذرة أو قصب ..

كان الولد يقترب منها ، يهمس فى أذنه بكلمات . تنطلق بعدها إلى داخل الغيط المجاور . يمضى وراءها . يغيبان ساعة ، أو أقل ، أو أكثر . ثم تخرج من الغيط ، وهى تنفض ثوبها ..

اعتاد الناس رؤيتها تتسلل فى الظلمة إلى داخل غيطان الذرة ، بعد صلاة العشاء . يتبعها ناس من القرية ، يشلح الرجال الجلابيب ، ويفك الشبان أزرار البنطلونات ..

كانت أيدى الرجال تعبث بجسمها ، فلا تصد ولا تبتعد . وكانت تشغل الرجال حتى وهم فى أحضان زوجاتهم . عباراتها ، إشاراتها ، إيماءاتها ، تنهداتها ، عرى صدرها وساقيها .

لم يكن لبهية الحلوانى إلاّ نفسها ، تعتمد عليها فى تدبير الوجبة التالية ، وفى شراء هدمة تسترها ، ودفع إيجار حجرة علوية فى دار سمعان شنودة ، أول الطريق إلى قرية حانوت ..

أدركت المرأة ــ لضمان تجنب الأذى ــ أنه يلزمها رجل يعطيها اسمه ، ويحميها ، ويدافع عنها . مشطت

شعرها ، وحكت كعبيها بالحجر ، واستخدمت الألوان . وقيل إنها ظلت تغنى من وراء نافذتها ، بصوت يسمعه الجالسون فى قهوة طعيمة :

ع الزراعية يا رب اقابل حبيبى

فطن ابن شفيقة إلى النداء ، فهز رأسه بما يعنى الفهم . لزم القهوة معظم الوقت . يرفع عينيه ناحية الشباك المطل على قهوة طعيمة ، يطمئن إلى وجودها . ترتفق الشباك بساعديها ، أو تلتمع عيناها من وراء الخصاص المغلق . يبتسم فى معابثة . خطرت أمام القهوة ، ترتدى التوب الأسود فوق ملابسها الملونة . لحق بها فى انحناءة الطريق . تقابلا على الزراعية ، وتواعدا . تسلل ــ فى مساء اليوم نفسه ــ إلى بيتها ..

ظل الناس يشاهدونه ، وهو يدخل بيت بهية الحلوانى متسللاً فى ظلمة الليل ، ويشاهدونه وهو يغادر البيت آخر الليل ، قبل أن يؤذن الشيخ التهامى رزق فى المسجد لصلاة الفجر . وكانت تيسر له ، ولرجاله ، لقاء الغوازى فى بيتها ، تأتى بهن من الموالد ، ومن الطواف بالقرى ..

قال بشير النحاس :

أصل المرأة يدل عليها ..

المرأة من عائلة الحلوانى . عائلة لها عزوتها فى مديرية الدقهلية ، وامتداداتها فى مديريات قريبة وبعيدة . زوجها الأول كان مدرساً بالمنصورة الثانوية . فاجأته أزمة قلبية ، أسلمته إلى القبر قبل أن يفوت أذانين . لم تكن أنجبت منه ، لكنها ظلت على ذكراه ، فأغلقت باب بيتها ونوافذه ، لا تستقبل إلاّ نساء عائلتها وصديقاتها من نساء القرية . وإذا سار فى شوارع القرية موكب عرس أو ختان أو شوار ، اكتفت بالنظر من الشباك الموارب . وإذا نزلت الطريق ، ترتدى ثوباً مرسلاً فضفاضاً ، مغلقاً عند العنق . وله أكمام طويلة واسعة ، بينما أحاطت الرأس والجبهة بطرحة سوداء ، فلا يبين إلاّ عينان مكحولتان . وحين تسلم على أحدنا ، فإنها تغطى يدها بطرف الطرحة السوداء ..

قال شحاتة عز الرجال :

كانت بهية الحلوانى ترقب فرج خليل ، عندما نجلس ـ فى الليل ـ مع رجاله فى قهوة صبحى طعيمة التى تطل عليها نافذة بيت بهية الخلفية . صوته الواثق ، الآمر ، وإنصاتنا لأحاديثه ..

قيل إنها عرفت حتى السنة المكسورة التى وضع فى مكانها أخرى ذهبية ، وإن لم تكن قد التقت به ، أو رأته فى الظلام ، فلم تدقق فى ملامحه . استدرجت ناس السمارة فى أحاديث لا تنتهى عن فرج خليل . ملك عليها حبه نفسها . راحت تترصد أنباءه . تهمس متسائلة : كيف ينام ويأكل . تعلن عن مخاوفها من مطاردات البوليس ، تنتظر ـ مشوقة ـ زياراته القليلة إلى قهوة صبحى طعيمة . تجرأت ، فنبهته ـ بواسطة أحد رجاله ـ إلى كمين دارت به أحاديث القهوة فى غيابه ..

لم نعرف عنه أنه نظر إلى امرأة بشهوة . سرت معه فى الأسواق . فى مدن لا يعرفه ناسها ، ولا يطارده فيها البوليس . تابعت نظراته فى الدكاكين والبنايات . ربما تأمل المارة والجالسين على أبواب الدور ، وعلى الأرصفة ، لكنه

كان يعبر النساء بنظراته ، لا تستوقفه امرأة ، مهما بلغت محاسنها . وقيل إنه ليس له فى النساء ..

دفعت إليه من يهمس فى أذنه ، بأن يتقدم لها ، فيتزوجان فى الحلال . فاجأه العرض . ظروفه لاتتيح له الاستقرار ، أو تكوين أسرة . لما أفهمته أنها تعلم بكل مايعانيه ، عرض المسألة علينا . قال إن رأينا ممايهمه ، وإن بدا أنه قد اتخذ قراره فعلاً ..

قال له سلامة حسبو :

ـــ الولية عينها عليك من زمان ..

لم يرد ..

قال سلامة حسبو :

ـــ على خيرة الله .. تقدم لخطبتها ..

هز رأسه بتأثر :

ـــ من يمكنها الحياة مع مجرم ؟..

قال سلامة حسبو :

ـــ لست مجرماً يامعلم فرج ..

فاجأنا بالقول :

ـــــ إذا أنجبت .. من يرعى أبنائى ؟..

قلت :

ـــــ الله يرعانا جميعاً ..

وغلبنى الانفعال :

ـــــ إنها امرأة بألف رجل !..

حياة الليل لها ثمنها . الفرار والمطاردة والخوف والتوقع . خلق الله النساء للرجال ، حتى ينجبن لهم البنين والبنات . كان فرج خليل فى حاجة إلى امرأة مثلها ، تضع أنوثتها فى خدمة الذكر . تنجب له الأبناء ، ترعاهم فى غيابه .

أسعد أيامها عندما بعث إليها فرج خليل بالمرسال . يلقى الكلمة ، ويمضى :

ـــــ موافق !..

فتحت ضلفتى النافذة المطلة على قهوة صبحى طعيمة ، للمرة الأولى منذ وفاة زوجها السابق . وضعت على رأسها إيشارباً أسود اللون ، وأخلت وجهها لابتسامة . تلقت رد الفعل ، وانسحبت إلى الداخل ..

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

كانت بهية الحلوانى تسرق له الدجاج والبط من أمام الدور . تدوس ـــ بقدمين حافيتين ـــ كومات الطين والأرض الموحلة وبقايا السباخ وقش الأرز . الدجاجات تنبش الأرض ، وجماعات البط تنزل إلى الترعة ، وتعود . اصطدمت فى فعلها بطشت غسيل أمام دار أم مشالى الداية ، فسقطت بطولها . ابيض رأسها ووجهها وملابسها بالصابون الوسخ . فوتت الأعين مارأته حتى لايتسلل ابن شفيقة بأذاه إلى دورهم ..

قال آدم وزة :

قال فرج خليل لبهية الحلوانى :

ـــ حياتى ليست ملكى ..

قالت مهونة :

ـــ ومن يملك حياته ؟..

في لهجة باترة :

ـــ تقيمين في دارك .. وأقيم في الخلاء ..

أمر عدد من الرجال . راقبوا الطريق من فوق الأسطح ، وأعلى الشون . ارتدى الرجال والشبان الجلابيب البيضاء ، وتعالت زغاريد النساء ، وظلت سحب الدخان فوق أسطح الدور ، تشي بروائح السلق والشواء والخبز الساخن ، ولعلع صوت بطة الغازية :

ومليت له الجلة من لبن البجر ولاعايز الجلة ولالبن البجر
ولاعايز الجلة ولالبن البـــجر ولاعايز إلا انت ياضى الجمـــر
ومليت له الجلة من لبن الجاموس ماعايز إلا انت ياضى الفانوس
ومليت له الجلة من لبن الجمال ماعايز الجلة ولالبن الجمال
ماعايز إلاّ انت ياضى الهلال

دخل المأذون بيت بهية الحلواني . في يده الدفتر . أتى به شحاتة عز الرجال من قرية طوخ الأقلام القريبة . وبعد أن أتم المأذون عقد قرانهما ، إنصرف الحاضرون ، وأغلق عليهما باب بيتهما . إحتضن بيت بهية الحلواني العروسين ، لكنه ظل ساكناً . توزع الفرح على بيوت السمارة . المناسبة غير معلنة ، والزغاريد والرقصات والأغنيات والنقوط .

كانت أعضاؤها متفتحة ، فحملت فى عناقه الأول لها . عد عليها تسعة أشهر من زفافها ، حتى أنجبت ..

ظلت أفراح الزفاف ثلاثين يوماً كاملة . لم تقتصر على مكان بذاته ، وإنما توزعت على بيوت السمارة وحولها . غاب عن البوليس أن الأيام الثلاثين كانت لفرج خليل وبهية الحلوانى . زوج الرجال ـــ فى العلن ـــ أنفسهم وأبنائهم ، لكن فرج خليل وبهية الحلوانى كانا عروسى الليالى المتوالية ..

ظل يدخل بيتها آخر الليل . إلى الصباح ، ثم يمضى ــ محاطاً بحراستنا ــ إلى حيث لايعرف أحد ..

قال فرج خليل :

ـــ هل أقام الناس كل هذه الاحتفالات لأنهم يحبوننى ، أو لأنهم يخشون أذاى ؟..

قلت :

ـــ لاتسئ الظن .. فأنت لم تؤذ أحداً فى السمارة غير العمدة ..

قال بشير النحاس :

ـــ إنهم يعتزون بنسبتك إلى السمارة ، فكيف يخشونك ؟..

قال سليمان عبد الواحد :

لأنها كانت مشاعاً لكل الرجال ، لم تشهد ليلة زفافها إلى ابن شفيقة ماألفته السمارة من الوقوف خارج حجرة العروسين . تلتقط الأيدى المنديل ، أو قطعة الشاش ، من وراء الباب . يوارب لحظة ، ثم يغلق . حتى النداء : قولوا لابوها ان كان جعان يتعشى .. أو : بيضتى الشاشة ياعروسة .. لم يعل به صوت . خلت الليلة من بقعة الدم . أراقها من لاتتذكره . وخلت الليلة من الزغاريد ، وطلقات الرصاص ، والأغنيات . دخلة أرملة ، أو مطلقة ، وإن لم تكن المرأة كذلك ..

قال بشير النحاس :

اختفى فرج خليل عن السمارة ـــ بعد إتمام الزواج ـــ أياماً تبلغ العشرة . ثم فاجأ بهية الحلوانى فى ليلة المولد

النبوى . كانت السمارة مشغولة بالفرح والأغنيات والطبيخ وحلقات الذكر ..

أبدت بهية دهشتها وفرحها . واقعها ، فحملت من فورها . وانصرف قبل أن يؤذن للفجر . دلقت ــــ فى الصباح ، أمام باب البيت ــــ طستاً كبيراً من الماء المغسول بالصابون ذى الرائحة .

قدم إلينا المبشرون حيث نقيم . أبلغوه بولادة زوجته ، وأنها ولدت ذكراً . نزعت أم مشالى العقد من رقبة بهية ، وفرطت حباته ، ورشت الماء على وجهها ، واستبقت الخلاص فى الحجرة حتى مضى ثلاثة أذانات ، فلا يتعرض المولود للشر أو الحسد . وحمل فرج الخلاص بنفسه ، فألقاه فى البحر ، ثم ألقاه ــــ فى المرتين التاليتين ــــ للكلاب ، حتى تكون الأنثى ولوداً كأنثى كلب ..

قال فرج خليل :

– سأسميه خلاء ..

إستعدت التسمية :

– خلاء ؟..

شرد بنظراته :

– حتى يتذكر الخلاء الذى قضى أبوه فيه معظم أيامه..

قال سلامة حسبو :

– وماذنب الولد فى هذه التسمية ؟..

تلكأت الكلمات على شفتيه :

ـــ إسمه خلاء ، وانتهى الأمر !

شددت أم مشالى بألا يدخل عليها أحد حديث الحلاقة ، أومعه لحم أو باذنجان ، أو امرأة عاقر أو حائض ، ربما جف صدر بهية فلا تجد لخلاء ماترضعه . ظل فرج خارج الحجرة التى لزمتها بهية الحلوانى ، أسبوعاً كاملاً لايراها ولاتراه ، خوفاً من المشاهرة . أطالت الرضاعة ليكتسب الطفل مناعة وقوة . وثقبت أذن خلاء بحلق ، وتركته بوساخته ، وعلقت فى صدره حجاب ، وفى رجليه خلاخيل ..

قال سليمان عبد الواحد :

أكلت بهية الحلوانى مع ابن شفيقة لحم الضأن ، وألبسها الحرير ، وضاجعها على سرير ذى أعمدة نحاسية ، وإن لم يختلف حالهما بعد الزواج . صارت هى الرجل ، ولها الكلمة . تعيب عليه ، وتشتمه ، وتلعنه أمام صبيانه . يخفض رأسه ، ويسكت ، أو يتابعها بابتسامة معتذرة . كانت تسير مكشوفة الرأس . وكان يعرف الكثير من سلوكها ، لكنه لم يسألها ـــ يوماً ـــ أين كانت ، أو متى تعود . وكانت نار الفرن فى بيتها دوماً مطفأة ، فهو يأتى لها بالطعام ساخناً من المنصورة ، ويأتى بالفاكهة فى غير أوانها . تخفى دهشتها ولاتسأله من أين أتى بها ، وكانت تحب الأقراط والعقود والمشغولات . وكان يبعث من يشتريها لها من المنصورة والزقازيق والقاهرة ، ويشغلها السؤال : كم جمع من النقود ؟..

قال عبد اللطيف صفراتة :

غاظ ابن شفيقة تمسك بهية الحلوانى بشرفها ، فطلب أن تدفع فدية ، أو أنها ستفاجأ فى فراشها بأحد صبيانه يضاجعها ..

قيل إنها تزوجته كى تتقى شره ، لكنها لم تأذن له بأن يدخل حجرة نومها ، ولاعرت له فخذيها . عرف حدوده ، فلزمها . يظل فى قهوة طعيمة ، تلقى إليه بأوامرها من النافذة . أفادها الزواج فى أن تحادثه ويحادثها ، لاتجد فى ذلك غضاضة ولاعيباً . حملت أم مشالى تهديده ، فأخلت له ساقيها . لم يكن التوليد عمل أم مشالى الوحيد . كانت تعمل بما يأتى لها بالمال . عملت خادمة فى البيوت ، وقوادة ، ودلالة ، وقارئة فنجان ، وخاطبة ، ومرابية ، ومرشدة للبوليس . صديقها من يملأ يدها . تنساه ، وربما تنقلب عليه إذا لقيت السخاء من آخر ..

قيل إنها لم تعرف والد ابنها ، ولاإن كان ابن شفيقة ، أم سلامة حسبو ، أم واحداً من الرجال الذين فتحت لهم بيتها بإذنه ، يدخلونه فى غيابه ..

قال بشير النحاس :

المرة الوحيدة التى خاطب فيها لسان بهية الحلوانى لسانى ، عندما تحدثت عن أسرتها فى بدواى ، وعن جد لأمها اسمه عبد الله النديم . تزوج من جدتها أعوام اختفائه فى القرية ، ثم ألف القبض عليه ، فغاب عن بدواى حتى جاء الناعى بنبأ موته فى بلاد بعيدة ..

غالبت ترددى :

ـــ ولماذا تركت أهلك ؟

وهى تتنهد :

ـــ قل لماذا تركنى أهلى ؟.. أعطى أبى أذنه لزوجته حتى أصبحت حياتى فى البيت مستحيلة !

قال شحاتة عز الرجال :

بدت بهية الحلوانى ـــ منذ زواجها ـــ ربة بيت ، تعرف واجباتها . تعد الطعام لفرج خليل ، ولنا . تقذف

الحب للدجاج ، تحلب الجاموسة ، تنشر الغسيل ، وتلمّه . أكلنا ـــ لأول مرة ، منذ أعوام طويلة ـــ أكلاً بيتياً . صينية كبيرة من الصاج ، عليها فطير بالقشدة وبيض مقلى ومخلل باذنجان ، وأرغفة ساخنة ، وقطع من الجبن القديم ، وبراد شاى ، وخمسة أكواب نظيفة ..

أهمل فرج خليل مااعتدناه ، فلم يظهر الاستخفاف بآراء زوجته ، ولاتظاهر بعدم الإنصات إليها ، ولااكتفى بإلقاء الأوامر . من ناحيتها ، لم تكن تناقشه ، أو تشعره أنها توجهه فى مسألة ، حتى لو اتخذ فيها تصرفاً خاطئاً ..

بعد شهرين من ولادة ابنه الوحيد ، أمر بتسفيره خارج القرية ، وخارج السنبلاوين كلها ، حتى لايأخذه البوليس للضغط عليه ..

الصورة خارج الإطار

قال بشير النحاس :

كنت ألحظ شرود فرج خليل ، ونحن فى الأماكن البعيدة : فوق الجبال ، وخلف زراعات القصب والذرة ، وفى الغرز التى تغيب عن أعين البوليس . كنت أشاركه الشعور ــــ الذى أثق أنه كان يعانيه ــــ بالخوف والقلق وعدم الاطمئنان . التوجس من صوت أوإيماءة أوحركة ، الحرمان من الأمان بالحياة وسط الجماعة ، وبالشوق إلى عياله ..

كانت غيطان الذرة تحيط بنا من كل جانب ، والهدوء سادر ، والسماء صافية ، نقية النجوم ، والقمر يتناقص اكتماله ، وإن أراق ضوءاً فاتراً ، فتماوجت ملامح الأشجار والنخيل وأبراج الحمام ..

قلت :

ــــ ماذا يشغلك يامعلم ؟..

قرب راحتيه من راكية نار بقوالح ذرة ، نعد عليها الشاى ، ثم مسح بهما على وجهه . تهدج صوته بحزن :

ـــ خلاء !

قال سلامة عبد الواحد :

أصابته ـــ أثناء مطاردة ـــ رصاصة فى ساقه . توكأ على عصا ، فقلّ فى أعين الناس . لم يعد حوله إلاّ القلة ممن ربطت الجرائم المتوالية بين مصيرهم ومصيره . قيدهم الخوف من جزاء الجريمة . باتت أوامره غير نافذة . توقع وشاية الناس به ، بعد أن ذهب الخوف من نفوسهم ، فكثر تنقله من مكان إلى آخر ، ولم يعد يأمن إلى أقرب أعوانه . عانى الريبة والشك ، فلم يعد ينام فى حضرة اثنين ، حتى لايتآمران على قتله . ينام فى حضرة واحد فقط ، ربما زوجته . ولم يعد يقضى يومين فى مكان واحد ، ولايستقر فى نوم ، ولايعرف لنفسه بيتاً . إذا اشتاق لابنه ، بعث أعوانه يأتون به إليه . يجالسه ، ويكلمه ، ويداعبه ، ويعطيه من أموال الناس . صورت له نفسه المريضة أن سلامة

حسبو ـــــ أقرب أعوانه ــ يخونه مع بهية الحلوانى . كان لايأذن لغيره من بين صبيانه ، بتدخين السجاير أمامه ، ودخول حجرة نومه . لطمه على وجهه ـــــ يوماً ـــــ لمناقشة تافهة . تحسس حسبو موضع اللطمة فى صمت ، وإن انتوى ـــــ فى نفسه ـــــ قتله ..

قال الشيخ التهامى رزق :

قيل إنه أشفق على بهية الحلونى من حياة المطاردة ، وتوقع الخطر . لم يأذن لحياتها معه أن تستمر فى ظل الخطر . أحلّها من عقد الزواج . لكنها أصرت على ملازمته ..

كان مساح الرى قد قدم إلى السمارة ، وبدأ فى قياس فتحات الرى ، والمرور على الترع والقنوات ، ونسبتها إلى الزراعات ، وتطهير المصارف . صحب المرأة والولد إلى " تمى الأمديد " . ظلت فى ضيافة عائلة شحاتة عز الرجال ، ومضى إلى الخلاء ..

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

صار القبض على ابن شفيقة قضيتى الشخصية . وضعتنى جرائمه فى بؤرة التحدى . ابن المرة : هل انتصر على ؟..

تعددت حملاتنا على حقول الذرة والقصب ، والمسجد وأضرحة الأولياء ، والأجران ، والسواقى المهجورة . وزاد حصارنا لمداخل القرية ، ومنافذها . جسنا داخل الحوارى والأزقة ، فى الطرقات الموحلة ، بين الدور الطينية المتداعية ، والطاقات ، والأبواب التى نادراً ماتغلق . أفلحنا فى تجنيد بعض أعوانه . أجهده البحث : من هو ؟.. لما هده اليأس ، قرر أن يسلم نفسه ، بدلاً من أن يقتله أحد رجاله ..

بدا فى وقفته أول الطريق إلى السنبلاوين متخاذلاً . يرتدى جلباباً من السكروتة ، ويدس قدميه فى نعل مغربى ..

حرصت أن أتسلمه بنفسى . مد يديه بلا مقاومة . ثنيتهما وراء ظهره . وضعت فيهما الكلبشات . دفعته داخل عربة البوكس . أقلته إلى مبنى مديرية الأمن . همنى إذلاله . سهل أن أدع العساكر يضربونه ، حتى يصرخ بأنه امرأة ،

لكنه سيخرج إلى الناس رجلاً ، يتناسى ماحدث ، أو ينكره . يعود إلى أذية خلق الله . حتى تلتصق الإهانة بوجهه ، أمرت بحلق شاربه . لاحظت التردد فى أعين العساكر . أمسكت المقص . قصصت به طرفى الشارب ، حتى أتيت عليه تماماً ..

ثانى يوم ، جابت العربة أنحاء القرية ، والقرى المجاورة ، تعلن وقوع ابن شفيقة فى يد البوليس . من يريد مشاهدته ، فإنه سيدفع إلى الوقوف خلف قضبان الزنزانة الانفرادية ، المطلة على الشارع الرئيسى ..

قال عبد اللطيف صفراتة :

قيل إن المرأة هى التى وشت به . دلت البكباشى عبد اللطيف الدمياطى على موضع كان يقضى فيه لياليه ، قبل إلقاء القبض عليه . كانت قد لمّحت بالطلاق ، بعد أن تحولت حمايته لها إلى بلطجة تطلب النقود والطعام ، فأرسلت إلى المأمور من يدله على مكانه ..

قال شحاتة عز الرجال :

أتعبه الهروب من قرية إلى أخرى . ضايقته مهانة بهية الحلوانى وخلاء . صحب البوليس المرأة وكل معارفه إلى البندر . قضوا أياماً تعرضوا خلالها للإيذاء والتعذيب . لم يكن الاستدلال على مكانه هو المطلوب . قال لنا وهو ينكت بعصا فى يده رماداً متخلفاً عن النار التى أشعلناها فى التبن ، وسط الغيطان ، تطرد الناموس :

ــــ تعبت ، وتؤلمنى ظروف المرأة والولد ..

إشترط ــــ لكى يسلم نفسه ــــ أن يستقبله بخيت أبو سحلى ، عضو مجس النواب ، أمام نقطة مرور السمارة . يصحبه ــــ فى سيارته ــــ إلى مديرية المنصورة . يتعهد له ، فلا يؤذى فى عياله ، ولافى نفسه . لاسجن انفرادى ، ولاتعذيب ، ولاشتائم ، ولاإهانات ..

هرول الرجل ــــ غير مصدق ــــ إلى العملاق الذى ألقى سلاحه . إفتقد يده فى راحة يد خليل الضخمة . لم يحاول أن يتبين ملامحه :

ــــ تمنيت لو أن لى شهرتك يافرج ..

قال بشير النحاس :

طالت أعوامه فى السجن . تشوشت ـــ فى ذهنه ـــ صورة العالم الخارجى . أعلن تخوفه من أنه لن يستطيع فهم ماسيلقاه . انتظرناه على باب سجن المنصورة . صحبناه إلى المركز . تابعنا خطوات الإفراج عنه ، ثم رافقناه إلى السيارة . دخل السمارة تحيط به طلقات الرصاص والزغاريد والصيحات ..

تبدلت صورته بعد أن تقدم به السن . الشيب الذى خط فوديه ، أضاف إليه ـــ بطوله البادى ـــ مهابة . ظل بريق عينيه على التماعه ، وإن سكن فيهما حزن غامض ، يسهل تبينه ، وظل كلامه فيما عاناه . لم تعد تهجر باله صور السلاسل والقيود والأقفال والزنازين المغلقة والحبس الانفرادى والظلام والسواد ورائحة البول والبراز . الرائحة العطنة اقتصرت على السجن يتذكره إذا تشممها فى أى مكان .

كان كلما مر أمام سجن المنصورة ، تطلع إلى النوافذ الصغيرة ذات القضبان الحديدية ، يدندن بموال ياسين :

سنتين فى السجن العالى   سنتين فى الزنازيـــــن
ويابهية وخبرينى   على اللى جتل ياسين

ويطلق تنهيدة :

ـــــ السجن سجن ولو فى جنينة ..

ـــــ كلمتك فى السجن أقوى من كلمة المأمور ..

ـــــ يظل فى النهاية سجناً ..

ويشرد بنظرات حزينة :

ــ كنــت أغمض عينى وأفتحهما على صورة الولد .. أتمنى أن أدفع عمرى حتى أراه ..

يضيف متصعباً :

ـــــ أيام .. الله لايرجعها !

ويعلو صوته :

ـــــ قتلوا فرج خليل فى السجن ..

وتخرج الكلمات مبحوحة :

ـــــ أنا الآن شخص آخر لايمت إلى القديم بصلة ..

نوافذ للرؤيـــــة

قال شحاتة عز الرجال :

رفض فرج خليل أن نعود إلى ماكنا فيه . قال :

ـــ عانى الولد والمرأة مالا يتصوره مخلوق ..

قال بشير النحاس :

ـــ نبعدهما عن السمارة ..

نطق وجهه بالدهشة :

ـــ وهل تعجز الحكومة عن الوصول إليهما ؟..

ثم بلهجة تقطر حزناً :

ـــ لم أعد أطيق أن أبتعد عنهما ..

قال سليمان عبد الواحد :

لزم بيت بهية الحلوانى المطل على قهوة صبحى طعيمة . ذئب نزعت أنيابه ، فلا يخافه أحد . حتى أعوانه تركوه وانشغلوا بأيامهم . لم يطرق باب الدار سوى اثنين أو ثلاثة من أفراد عصابته القديمة . أقلهم البوكس إلى المركز ، وحذروا من العودة إلى دنياهم الأولى ..

قال عبد اللطيف صفراتة :

تعددت رؤيتى له فى قهوة صبحى طعيمة ، وفى الزراعية ، وعلى الجسر . كان فى حاله . يأخذ من الجالسين معه ، ويعطى . لايبدو أنه يختلف عنهم فى ملابسه ولاتصرفاته ولاطريقة كلامه . ورأيته وهو فى طريقه إلى بيته ، قبل أن يؤذن للعشاء ، ربما لأنه كان مراقباً ، فلا يملك السهر خارج الدار ..

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

هجر الجريمة ، وإن لم يهجر المجرمين . عرفت أنه لزم بيت بهية الحلوانى المطل على قهوة طعيمة ، يلجأ إليه البوليس والأهالى : من يريد العثور على أموال ضائعة ، سرقة سلاح أو بهيمة ، رشوة مفتش الرى ، أو دلال المساحة ، التستر على شاب تخلف عن التجنيد ..

قال عم طلخاوى :

روى فرج خليل أنه سمع هاتفاً فى الليل ، ظل يطارده على مدى أيام : أما آن لك أن تقلع عن غيك ؟.. فانتوى التوبة ..

نبذ فرج خليل حياة التنقل والجوبان ، ولزم قريته ، لايغادرها . أعلن للجميع أنه قد هجر حياة الجريمة ، وتبعه ثلاثة من أعوانه ، لم يعودوا يحملون السلاح ، ولايثيرون الخوف فى نفوس أهل القرية ..

قال بشير النحاس :

روى أنه بدأ الصوفية بأمر من سيدى أحمد البدوى ، بإشارة من النبى صلى الله عليه وسلم . مال إلى النسك والزهد والدروشة . استغرق فى اللذة والوجد وطيب القلوب والأفكار الصالحة ، والندم على مافات من التقصير . لم يعد يستقر فى مكان . يبدو منطوياً على نفسه ، يأخذ منها ويعطى لها ، ولايخاطب الناس ، ويتردد على معظم مساجد المركز فى يوم واحد . ربما غادر المسجد قبل أن تؤدى الصلاة

ليؤديها فى مسجد آخر . يلزم جوار الأضرحة بعين ذاهلة . ولزم ـــ لفترة ـــ إمام الجامع الأحمدى ، لاقتباس أنوار العلوم الشرعية منه ..

أعرض عن محبة الدنيا ، وشهواتها ، والتلذذ بمطامعها ولباسها ومناكحها . آثر مايبقى على مايفنى ، ولم يعد أيامه ، واعتبر نفسه من الموتى ..

قال شحاتة عز الرجال :

أنصت إلى هاتف فى أعماقه ، أنه لم يخلق لهذه الحياة . أمره الهاتف أن يصبح مقامه تحت شجرة الجميز ، لايتركه إلاّ لضرورة ، وأن يبنى لنفسه كوخاً يقيه فضول الناس ، وتقلبات الجو ..

ودع أصحابه ، واعتزل الناس ، فى الكوخ القريب من الطريق الزراعى المفضى إلى السنبلاوين . إنفرد بموضعه ، لايزور أحداً ، ولايأذن لأحد بزيارته ، ولاتابع له ولاصديق . يتناول طعامه مما تبعث به إليه زوجته مع طفله . يدفعون إليه الطعام من وراء باب الكوخ الموارب ، يأخذه ، ويغلق

الباب . وكان إذا انطفأ قنديل الكوخ لنفاد الزيت ، أشار إليه ، فاتقد ..

جاهد نفسه . عودها على الرياضات فى الزهد والنسك والسهر والذكر . خلا إلى تأملات وتسابيح ، والقرآن يتلوه ، والصلاة يؤديها فى مواقيتها ، بالفرض والسنة ، يضيف إليها من اجتهاده . وكان يلزم الصوم حتى عن الكلام ، ويقصر أوقاته على أداء االصلاة ، وقراءة الأوراد ، والتهدج بأدعية تضئ له المكان من حوله . تحكمه النوبات الغامضة ، يفارق العالم ، يظل منصرفاً إلى الصلاة والصوم وقراءة القرآن ، فلا يحادث أحداً . وكان القادم من مسافة بعيدة ، يشم رائحة بخور عطر تنتشر فى الجو

خرج إلينا يعلمنا ماتعلم فى الخلوة . تبعته وسلامة حسبو وبشير النحاس ، بينما ظل آدم وزة وعبده الجمل فى طريق الحرام . بنى أمام الكوخ مصطبة من الطوب الأحمر والأسمنت ، طولها ثلاثة أمتار ، وعرضها متران . غطاها بكليم اشتراه ــــ بنقوده ــــ من سوق السنبلاوين . أضاف إليها مساند من الكريتون المحشو بالقطن ، للظهر ، وللاتكاء عليها . لم يكن له إيراد ولاملك ولاوظيفة ، ولم يكن يقبل

المساعدات . إنما هو ينفق مما يأتى به الغيب . تطول جلساتنا معه لساعات . يتحدث عن عبر الزمان . روى لنا الكثير من الأحاديث والأخبار ، والغريب من الحكايات والروايات . أهمل ملاحظة بشير النحاس باختيار موضع آخر ، بدلاً من جانب الطريق ، فلا يضايقنا غبار الأقدام العابرة ..

كان ـــــ مثله فى ذلك مثل السيد البدوى ـــــ لايطيق الحجرات المغلقة ، وإن أرجع السبب إلى قضاء معظم حياته فى الخلاء . وفعل فعل البدوى فى الاتصال بالكون الفسيح ، يتأمل القمر وحركات النجوم ، ويستقبل الأتباع والمريدين ..

أقبل الناس عليه ، وأحبوه ، وأفادوا من علمه . وردت عليه الوفود من القرى القريبة ، والبعيدة . خلوته داخل حجرة منفصلة عن بقية الدار . لها باب جانبى يصلها بالطريق . يلزمون الساحة الصغيرة أمام الباب ، فى صمت أو يتناقشون ، حتى يأذن لهم الشيخ بالدخول . يسألونه الحاجات ، ويستمعون إليه فى أخبار الوقائع والغيوب . إعتقدوا فيه ، وأنزلوه منزلة الأولياء . عنوا بالإنصات إلى كلماته ، ملاحظتها ، تفسيرها ، وتحديد المعنى الذى تقصده .

لم يكن يرد على سائليه بكلمات محددة ، ولاواضحة . إنما هى كلمات مدغمة أو محملة بكنايات وتشبيهات واستعارات . يعيدون نقلها مفهومة . لما قال : خراف هذا العام ستفلت من الذئاب ، فسر عوض عبد العال قوله بأن محصول القطن سينجو من الدودة . وقال : عينى كبير عائلة صفراتة ، ففسرت أم مشالى الداية قوله ، بأن الحاج عبيد كبير عائلة صفراتة سينتقل إلى رحاب الله . وقال : إن السماء ستمطر على السمارة صيفاً ، فقال الشيخ التهامى رزق إن فيضان السنة سيكون وفيراً . وتيقن الناس من صدق نبؤاته حين تحققت تفسيراتها ..

قال صبحى طعيمة :

لم يلبس ثوب الدراويش ، ويخرج إلى الناس بالصورة التى فاجأهم بها ، إلاّ بعد أن زالت دنياه . وتحول الكثير من قطاع الطرق ، والخارجين على القانون ، على يدى ابن شفيقة ، إلى مريدين وأتباع . بعضهم صار من السالكين ، يتبعونه أينما سار وحل ..

مع أنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة ، فإنه فاجأ ــــ حتى أقرب أعوانه ــــ بحفظه لسور القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ، وكرامات الأولياء ومكاشفاتهم ، والرقى ، والتعاويذ ، والنفاثات فى العقد . وكان يحط على الشجرة نسر كبير ، يجفل من طيرانه مريدو الشيخ ، لكن الشيخ كان يحادثه بلغته ..

شهدت له بالولاية والكرامة ، لما شاهدته منه من ذلك ، واعتقدت فيه ، وعلمت حقيقته ، ومانطوت عليه سريرته لله تعالى ..

قال شحاتة عز الرجال :

لم يكن يخرج فى ليلته إلا بعد أن يطمئن إلى أداء الرجال للفرائض والسنن . ولا يتناول طعامه إلاّ بعد أن يصرخ الجوع فى بطنه ، ولاينام إلاّ عندما يقهره التعب ، ويلوذ بالصمت ، فلا يتكلم إلاّ عند الضرورة . مفرداته الحساب والعقاب ، والجنة والنار ، وضيق القبر واتساعه . وكان دائم الترديد لأسماء الله الحسنى ، التسعة والتسعين ..

كنا نحترم شروده وسرحاته . نصمت حتى يعود إلينا . يقول إنه كان يطوف ــــ فى مجلسه ــــ بالبيت الحرام . يدلل على رؤيته بأسماء معتمرين من أبناء القرى القريبة ، طافوا حول الكعبة فى اللحظة نفسها . نعرف ــــ إذا سألنا ــــ أنهم سافروا إلى الأراضى الحجازية لأداء العمرة . وكان يجوس بعينيه فى دنيا غير الدنيا : عوالم مجهولة ، يسكنها من يعرفهم ، وإن لم يعرف لهم ملامح ولاتكوينات جسمية . وكان يعرف الكثير من أسرار البيوت . حتى الرجل الذى يضاجع امرأته بغير شرع الله ، كان يوبخه ــــ إذا قدم لمجلسه ــــ ويطالبه بأن يرعى الله فى المرأة المسكينة .

كان الحال يعتريه ، فيعلو صوته بما لايفهمه من حوله ، وإن خاطب بكلماته أنبياء ورسل وأولياء . وقد شاهده سلامة حسبو يخاطب الحيوان . يشكو له همه ، يطلب عونه ، يسأله فيما غمض عنه ، يعطى انتباهه لأصوات الحيوان بما يشى بتعرفه إليها . وكان يحدثنا عن رؤيته لإسم الله مكتوباً بالنور ، يملأ مابين السماء والأرض ..

قال سلامة عبد الواحد :

لم يعد الناس يدفعون له الإتاوات . يعتذرون بالظروف الصعبة . تضاءلت صورته فى الأعين . غابت المكانة القديمة ، فهو مثل الأرض التى تحيا على الأسمدة العضوية والمبيدات ..

توهم أتباعه أن أهالى السمارة نسوا ماكان فى الزمن القديم . تحدثوا عن ابن شفيقة بما يجعله ولياً ، أو قديساً ، أو ملاكاً منزلاً من السماء . روجوا له ، فصار قادراً بالكرامات والمشيئة النافذة . زعموا له من الأسرار مايخالف القرآن والسنة ، مالا يوجد فى نصوص الشرع . أضفوا عليه كل ماهو خارق وغير مألوف . نسبوا إليه من المعجزات مايجعله كالانبياء . أكدوا أن الله أعطاه لفظ " كن " فهو يلفظه ليتحقق مايريده ..

كوّر على رأسه عمامة كبيرة ، وأمسك فى يده سيفاً ، وادعى الولاية ، فهو يطرد الشياطين ، ويفك السحر ، وعقد البنات ، ويروى عن إلمامه بتذكرة داوود ، ويتنبأ بما فى بطون الإمهات ، ويصنع الوصفات ، ويدعو بالخلف الصالح ، ويمنع الشر ، ويشهر ، ويربط ، ويعالج حالات الحسد

والسحر ، ويكشف أحوال الموتى والغائبين ، ويسيطر على الحيوان والنبات والجماد ، ويرد القدر ، ويحقق الشفاعة ، ويتصرف فى الكون بالهمّة ، ولايتأذى بلسع النيران ..

أكد سلامة حسبو رؤية ابن شفيقة يعبر ترعة البوهية إلى الضفة المقابلة ، ماشياً على الماء ، وطار فى الهواء ـــ ذات ليلة ـــ ليؤذن لصلاة الظهر ، بعد أن ظل مسجد القرية مغلقاً لمرض مفاجئ ، ألزم الشيخ التهامى رزق بيته ، ولم يجد من يحمل المفتاح إلى المسجد..

لم يعد إلاّ أن يكسوه الله الريش ، ويلبسه النور ، ويقطع عنه لذة الطعام والشراب ، فيصبح ملكاً أرضياً ..

قال بشير النحاس :

هل أحبه الناس كراهية فى السلطة ؟..

ربما !..

لكن الناس تزايدوا . وفدوا من القرى والمدن البعيدة . عاملوه بما يستحق من المحبة والاحترام . أقاموا حلقات

الذكر علانية ، دون أن تشغلهم تهديدات المأمور والعمدة . كان يقف مثل الضياء فى داير الناحية الذى تتفرع منه شوارع السمارة ، يطيل جلسته فى قهوة طعيمة ، وأمام دكان عم طلخاوى ، يلمح ـــ من بعيد ـــ دخان القوالح داخل غيط . يمضى ـــ بتلقائية ـــ نحوه ، يلقى السلام ، ويجلس . يمسح عن المتعبين عرقهم ، ويعظهم . ويمضى . الرائحة الذكية تسبقه ، وتحيط به . الناس يتبركون بمصافحته ، يصرون على تقبيل يده ..

قال الشيخ التهامى رزق :

الصوفى كالأرض ، يطرح عليه كل قبيح ، ولايخرج منه إلاّ كل مليح ..

انتشر ذكره فى قرى الدقهلية ، ورويت عنه الخوارق والكرامات . صار من أهل الخطوة ، وللناس فيه اعتقاد . يلقى سجادة الصلاة على كتفه ، يفرشها فى أى مكان متى حل موعد الصلاة . وكان إذا ركب حصانه ، سار خلفه العشرات حاملين البنادق والشوم والعصى . يطوف القرى . يعلم الناس أمر دينهم ، ويستمع إلى شكاياتهم ، ويفصل

مايشجر بينهم من خصومات . إنتفع بعلمه ونصحه وإرشاده ، أعداد ممن حادوا عن طريق الهداية والسداد . تاب على يده خلق كثير من المنسر والحرامية وقطاع الطرق ، ولزموه مريدين ، ينفذون نصائحه وأوامره ونواهيه . لم يكن ابتلاع النار ولا أكل الزجاج أو الثعابين مسموحاً به بين مريديه . من تأخذه الجلالة ، ويزدرد قطعة زجاج ، فإنه يطرد من حضرته حالاً ، ولايعود إليها .

قال صبحى طعيمة :

ذهب عقله فى السماء ، وإن اختلط جسده بالناس فى حياتهم . يسير فىالسوق وداير الناحية والشوارع والزراعية ، ويجلس فى القهوة ، ويتردد على دكان عم طلخاوى . يقول كلمات غير مترابطة وبلا معنى ، وإن اعتبرت من الكرامات ..

أظهر من خوارق العادات ما أعلن ولايته . ولجأ إليه لصوص ورجال ليل . تفل فى ماء ، ورش على وجوههم ، فتألقت بالتوبة ، ولزموا خدمته ، لا يفارقونه إن جلس ، أو

طاف فى القرى . وكان يختزن الكثير من الكرامات والمكاشفات ما لم يبح لأحد به . حتى أقرب أعوانه ، سلامة حسبو ، عجز عن تأويل أعماله ..

قيل إنه وصل إلى حالة تسقط عنه الصلاة والصيام ، وتجيز له أن يفعل ما قد تدفعه إليه نفسه من الكبائر أو الصغائر ..

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

لم يعد من المفروض أن يهمنى أمر ابن شفيقة ولاجرائمه . النقل المفاجئ إلى قنا وضعنى فى بؤرة التحدى . أين المرة .. هل انتصر على ؟.. تابعت حكايته ، سألت ، تقصيت . حل ابن شفيقة عصابته ، وأعلن التوبة ، لكنه ظل يتولى التخطيط للجرائم ، وإن لم يشارك فيها ، ويتستر ، ويأوى ، ويبيع ، ويرد المسروقات لقاء حلوان .

لم يعرف فرج خليل الصلاة فى حياته ، ولاأدى ركعاتها . وحين سئل ، قال : إنه يفضل الصلاة فى خفاء عن الناس ، فى الأماكن البعيدة . وقال للمترددين عليه إنه قد

سقط عنه التكليف ، فلايسأله الله يوم القيامة ، لاعن صلاة ، ولاغسل من جنابة ، ولامن احتلام ، ولاعن زكاة ، ولاعن حج ، ولاعن جهاد ، ولاعن صلة رحم ، ولامواساة ، ولا عن شئ من فروض الدين ..

لم يعرف الله فى غير الحلف به ، ليدارى عن الناس جرائمه . أغلب سرقاته كانت من دافعى الزكاة ، فأعجزهم عن دفعها ، ودفع الثمن فقراء السمارة ..

نشر أعوانه عن كراماته ومكاشفاته . قيل إنه كان يسمع تسبيح الطير والحيوان والجماد ، من صلاة العشاء إلى طلوع الفجر . وقيل إنه أبرأ المرضى ، ومسح بيده على عينى ضرير يتردد على القرية للبيع ، فأبصر فى الحال . وقيل إنه أتى بلعابه من فمه . مص المريض أصابعه ، فذهب عنه السقم والأنين . وقيل إنه ألقى على الأرض بحزمة فجل ، تحولت ـــ أمام الأعين ـــ إلى ثعابين وحيات ، وتفرقت . وقيل إنه أعاد إلى الحياة من كانوا على شفا الموت ..

لم تنطل على الناس فى السمارة شعوذة ابن شفيقة ، ومحاولته لأن يصبح شيخ طريقة . ماضيه الملوث جره

وراءه . إقتصر أتباعه ومريدوه على البلطجية واللصوص والمحتالين وقطاع الطرق ، لايترددون فى دخول المسجد بالأحذية ، أو يدخلون حفاة دون وضوء ، ويخطئون فى آيات القرآن الكريم ، ويغيب التجانس فى أدائهم للذكر. لم ينضم إليهم أحد من الغلابة والمسالمين ..

فشل ابن شفيقة فى ادعاء الولاية ، ولا أن يصبح مجذوباً . الله يجذب مخلوقاته بعطفه .. لكن الأحداث المتوالية أفقدته عقله ، فصار مجنوناً . عانى ــــ فى أخريات أيامه ــــ اختلال العقل وسرساب الماء ، فهو لايفطن إلاّ إذا أحس بالبلل ، أو نبهه الناس حوله ..

قيل إنه قضى بقية أعوامه فاقداً عقله ، لايعى الناس ولاالأشياء ، ويخفى نفسه من مطاردات الأولاد . ألف الأهالى رؤيته فى حوارى السمارة ، وعلى أبواب االدور ، وأمام القهوة والغرز . له أحوال عجيبة ومناظر تستلفت الأنظار ، فهو يحلق لحيته وشاربه وحاجبيه ، فيبدو شائه الخلقة . ويرتدى أساور من زجاج ، تصدر صوتاً كلما أتى حركة ، ويقتات بما يصادفه فى أرض الطريق دون أن يتأكد منه أو يتفحصه ، ويهمل أسئلة الناس وكلامهم ، ويمضى فى

سبيله كأنه ينتمى إلى عالم آخر . ربما سحبه ولد من حبل الصوف الملتف حول رقبته ، فيصدر من فيه صرخات متوالية ، رفيعة ، عالية ، تدفع الولد إلى ترك الحبل ، والفرار ..

خيـــر الـــزاد

قال الشيخ التهامى رزق :

أخلاق المرء ـــ كما تعلم ـــ مزيج من الخير والشر . دائمة التغير ، فلا تثبت على حال . وقد احترف فرج خليل الجريمة ، ومارس الشر ، لكنه كان ينزع إلى المروءة ، وكانت نوازع الخير فى نفسه حاضرة ، وإن لاتظهر إلاّ عندما يجد الجد . روى الكثير من الحكايات عن الضروع التى امتلأت ـــ بفضله ـــ باللبن ، والأجران التى امتلأت بالحبوب ، والمرضى الذين صحت وجوههم بالشفاء . وقيل إنه كان يمتلك خاصية الفعل الحسن ، ويمتلك خاصية الفعل السئ . يربط الرجال عن النساء ، ويدخل العقول فى هذيان ، ويحرق الدار دون يد تشعل النار . وكان رأيه أن العلم لايحتاج إلى قراءات فى كتب . العلم الصحيح لدنى ، يضئ به الله داخل النفس ، فينشغل به العقل ، وتمثل النفس فى الحضرة الإلهية ..

قال بشير النحاس :

لولا أنى رأيت ماجرى ، ماصدقته ولارويته : قصف الذئب ثلاث دجاجات فى قاعة الفرن بدارأم مشالى واختفى . تكررت فعلته فى اليوم التالى فى كبش بزريبة عائلة صفراتة . لما رأت سعدية زوجة شيخ الخفر توفيق أبو اسماعيل ، ان الساقين المغموستين فى الدم ، هما كل ماتبقى من رضيعها ، خلفهما الذئب فى بداية الطريق إلى الغيطان ، علت الصرخات ، وصيحات التحذير ، وارتفعت الأيدى بالشوم والمناقر والمناجل وعصى الجريد ، وأغلقت الدور أبوابها وطاقاتها . لم يعد أحد يخرج للزرع ، أو يسرح بالبهائم ، يجلس تحت أشجار اللبخ والجميز وأم الشعور . ولم تعد البنات يحملن الزلع والبلاليص يقصدن مياه المسقى . خفت الأرجل من الطريق ، وتمطى الخوف فى الغيطان ، وعلى الجسر ، وعلى القهوة ودكان البقالة ، وداخل المسجد ..

فاجأتنى وقفة الذئب على باب الكوخ . تراجعت ـــ بعفوية ـــ فتعثرت ، وسقطت على ظهرى . مضى الذئب ـــ بخطوات متباطئة ـــ إلى الداخل . كان الشيخ بمفرده ، فتألمت مما تأكدت أنه سيحدث . لم أدر كيف مضى الوقت ،

ولاماذا حدث داخل الكوخ .. لكن الصمت السادر مشى بى إلى الكوخ . شهقت بالمفاجأة والخوف . كان الشيخ مشغولاً بقراءة أوراده ، والذئب مقعياً إلى جانبه ، مغمض العينين كأنه يصغى ..

قال شحاتة عز الرجال :

ظهر فى ترعة البوهية حيوان غريب ، ليس تمساحاً ولايشبهه ، وليس سمكة هائلة الحجم . لم يؤذ أحداً ، لكنه كان يتحرك فى الماء بمجرد اقتراب قدم من موضعه ..

وقف فرج خليل على حافة الترعة . أشار بعصاه ناحية الحيوان الغريب . سبح الحيوان ــــ وسط ذهول الجميع ــــ إلى حيث يقف الشيخ . قرأ عليه الشيخ أدعية ، فلحقه جمود الموت . ظل فى موضعه ميتاً ، وجرى عليه مايجرى على جثث الموتى من إنسان وحيوان ..

قال بشير النحاس :

من ينكر الكرامة ، إنما ينكر الحق ، لأنها من صنعه ، فلا ينكرها إلاّ ذوو القلوب المحجوبة عن الله . مع أنه كان قليل التعلم ، فإن أكابر الفقهاء والمتعلمين حضروا مجلسه . إمتحنوه بالمسائل الدقيقة ، والفروع المشكلة ، فأجابهم . وقد أحسن الناس الاعتقاد فى فرج خليل . آمنوا بصدق ولايته . ذاعت شهرته ، وقصده الآلاف للتبرك به ، والإفادة من علمه . إكتسب ـــ فى أيامه الأخيرة ـــ شفافية ونورانية ، وقدرة على شفاء الحالات المستعصية . وكان يمسح الرءوس ، ويتفل فى الأفواه ، ويسقى المرضى ماء وضوئه ، فيبرءون ممابهم . وكان يرقى المريض بتلاوة سورة الفاتحة ، فيتعافى بإذن الله . رأيته وهو يجرى على ظهر عاشور أبو اسماعيل ، لماأصابه الشلل ، ويقول :

ـــ قم بإذن الله !..

وقام الرجل من فوره ..

انكسرت له قوانين الوجود . يستطلع المستقبل ، ويكشف عن الغيب ، ويحيا فى خيالات الكعبة وزمزم وقبر الرسول ومنى والصفا والمروة والمقام . روى أنه كان يرى

نفسه فى محفة ، تطوف به أقطار الأرض . غاية الطواف بيت الله الحرام وقبر الرسول ، وتعود ، تبطئ فوق جوامع أولياء الله وأضرحتهم . وثمة نور كان يتحدث عنه ، ولانراه ، يتبعه ، لايستقر فى موضعه ، ويعتذر عن إلحاح الدعوات . يرفض حتى إشفاق مريديه . فإذا غاب النور فى الأفق ، عاد إلى نفسه ، وإلينا ..

عرف عنه القدرة على الإخبار بالغيب ، وتجاوز حدود القوانين الطبيعية ، والاتصال بعالم الأرواح ، ورؤية الموتى ، وسؤالهم عن الغائبات . ينادى على الميت الموصوف ، فيقف بين يديه ، وإن لم يره الجالسون . يسأله عما نادى عليه من أجله ، لايأذن له بالانصراف حتى يجيب بما يقنعه ..

لم يعد يسأله أحد ، إن كان يصلى . عرف أن الأولياء قد تسقط عنهم التكاليف . يهملون الصلاة والصيام ، ولايؤدون فرائض الدين ، ولايتقيدون بشئ من نواهيه ، ولايخضعون لمحرماته ..

فى أواخر أيامه ، كان الضوء ينبعث منه ، إذا حل الظلام . يراه الجالسون فى الغرز ، والسائرون عبر الغيطان

. ينتقل معه الضوء أينما ذهب . لايغيب إلاّ إذا مشى فى سوق القرية ، يتبعه ضوؤه . ولم يكن يقضى بأمر إلاّ أن يراه مكتوباً فى السماء . وماسار من مكان إلى مكان إلاّ رافقته سحابة تظلله .

كان يتطور ، ويختفى عن الأعين . ربما كنا فى مجلسه ، فيختفى . ندرك أنه يأمرنا بالانصراف . وربما كنا وحدنا ، فنجده بيننا . على رأسه هالة نور تصحبه فى كل مكان ، يخرج من جيبه الخالى مايطلبه المريدون ..

لم يعد يحتاج إلينا ، إلاّ أن ينادى على أحدنا ـــ من موضعه ـــ فيجيبه . يأمره : تعال ، فيسافر إليه ، أو يأمره : إفعل كذا ، فيفعله ..

حتى لايترك موضعه ، حلق شعر رأسه ، ولحيته ، وحاجبيه ، ورموش عينيه . يصعب أن يراه الناس ـــ فيما عدا المريدين ـــ على هذه الهيئة ..

أزمعنا ـــ فيما بيننا وبين أنفسنا ـــ أن نشيد له ـــ إن حل الأجل ـــ ضريحاً يليق بمقامه وبركاته ، نضع فيه صندوقاً للنذور ، فتعم البركات ..

قال شحاتة عز الرجال :

علم بنبأ وفاته . تحدث فى الليل إلى أصوات هامسة . ثم طلب مصحفاً ، ظل يتلو منه ، إلى صلاة الفجر . فلما أدى الصلاة ، بعث من ينادى على أصحابه ومريديه . جعلهم عن يمينه وشماله ، وأعلمهم بساعة انتقاله ، وأوصاهم بأنفسهم ، وبعياله ، وقال : إن كل إرادة رهن إرادة الله . أوصانا بأن يدفن فى موضع الكوخ الذى أمضى به نهاية أيامه ، على مدخل القرية ، بالقرب من شجرة جميز هائلة ، كان يفضل الجلوس تحتها ، وأن يبتنوا ـــ فيما بعد ـــ فوق قبره ، مسجداً ، أو زاوية ، لايخلطون بين قبره ومقابر القرية ، المجتمعة فى نهاية الطريق الترابى ..

أمرنا بتلاوة القرآن بإخلاص . وظل هو يقرأ سورة الإخلاص ، ويعيد ماقرأ ..

زجر شحاتة عز الرجال حين أشرق بالبكاء . قال إن الموت حق . وطالبهم بالسنة ، فيدفن قبل أن يؤذن لتوقيتى صلاة . وتمدد ، بحيث صارت رأسه ناحية القبلة ..

رأينا فى دفنه مايثير العجب . عندما دفن فى مقبرته ، وسوى التراب عليها ، تناهى من القبر صوت ، هو صوته ، يقول :

ـــ ترفقوا بأنفسكم ، فتلقوا مثل الهناءة التى أحياها الآن !..

وظلت آيات القرآن تتناهى ـــ بصوته ـــ من الداخل ..

إقترح بشير النحاس إعادة فتح القبر ، خشية أن يكون الرجل فى حياته . رفضت ذلك حالاً . ماحدث ينتسب إلى المعجزات الكثيرة للشيخ الجليل ..

قال بشير النحاس :

لما أحس دنو أجله . هتف فى الناس المحيطين بمجلسه . أعطوه انتباههم ، فقال كلاماً كثيراً ، به عظات وعبر ، خشع له السامعون ، وانخرط بعضهم فى البكاء . انصرف ولى الله تحوطه مهابة . إعتذر لمريديه ومن يريدون مرافقته . طلب أن يكون سيره بمفرده . تابعناه من بعد ، وهو

يمضى فى الطريق الترابى إلى الكوخ ، على أول الطريق إلى السنبلاوين . وكنا قد شعرنا باقتراب الخريف من الظلام الذى يحل مبكراً ، واشتداد الضباب ساعات الصباح ، وتضوع رائحة الغيطان بما يختلف عن بقية أوقات السنة ، وأحاديث أهل السمارة عن توقعات الحصاد ..

إستوقفه زاهر النجار . سأله ـــ كما تحدث فيما بعد ـــ فى خصام بينه وبين زوجته . أشار الولى ـــ رحمه الله ـــ بالصواب . ثم دخل الكوخ ، فقبض ليلته ..

قال صبحى طعيمة :

استعد فرج خليل للموت بالوصية . ودل زوجته على مال ، دفنه تحت شجرة فى آخر الطريق المفضى إلى قرية طوخ الأقلام المجاورة . إعتزل فى خلوة ـــ منذ قدوم رمضان إلى نهايته ـــ يصوم ويصلى ويتعبد ويتهدج بأدعية . انفتحت له ليلة فى العشر الأواخر ، طاقة القدر . لبت دعاءه بالستر ، فعاش بقية حياته مستوراً . وكان ينفق إنفاق من لايخشى الفقر ..

مات فرج خليل كما يموت الأولياء ، على السجادة ، عقب صلاة التراويح ، فى رمضان . همس يطلب مصحفاً شريفاً ، إحتضنه على صدره ، وتلا آيات من القرآن الكريم ، ثم نطق بالشهادتين . أسند رأسه إلى السجادة ، فى الركعة الأخيرة ، ثم لم يرفعها ..

لاحظ مريدوه طول السجدة ، وصمته ، وسكون أنفاسه . نادوا عليه ، فلم يرد . دفعه سلامة حسبو بيد مترفقة ، فسقط على الأرض ، وفى فمه كلمة : الله ..

أخذ الناس ماء غسله ، وتبركوا به ، فلم يصل إلى الأرض منه شئ . روى مابدا كالخوارق فى حمله ودفنه ..

لم تشهد السمارة ـــ فى العام التالى لوفاته ـــ حالة وفاة واحدة ، بينما تعددت الولادات بما لم تشهده القرية من قبل ..

قيل إنه عاود الظهور للعمدة مرات :

ـــ لماذا تمنع إقامة ضريح ومقام لى ؟..

ـــ هذه ليست وظيفتى ..

ـــ أنت تحرض الإدارة على عدم الموافقة ..

ـــ هذه سلطة المديرية ، من هم فوق ..

ثم وهو يتصنع المسكنة :

ـــ أنا مجرد عمدة ..

قال فرج خليل فى عدم تصديق :

ـــ إذا أصررت على موقفك ، فلا تأمن على زراعتك أو بهائمك .. لاتأمن حتى على بيتك وأولادك !.

تقاعس العمدة عن أداء ماطلبه ولى الله . أهمل الأمر ، فلم يصارح به حتى أهل بيته . لكن الحمى التى أصابت أكبر أبنائه نافع ، دوخت الأسطى عبد الشكور الحلاق ..

وعندما ارتفعت حرارة الولد إلى الأربعين ، واصطبغ وجهه بحمرة قانية ، ومزق الألم بطنه ، وامتلكه القئ ، والهذيان ، نقله إلى مستشفى السنبلاوين الأميرى . وضعوا على رأسه كمادات ثلج ، وحقنوه بأدوية ، وسقوه محاليل .. لكن الولد ظل على حالته ، حتى علا صوت العمدة بالقول ـــ وسط دهشة الجميع ، وغياب فهمهم :

ـــ سأنفذ وصيتك يافرج !..

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

إطمأن ابن شفيقة إلى مستقبله بمبلغ كبير ، وضعه فى آنية من الفخار . دفنها فى حائط بيت بهية الحلوانى . لم يخبر بذلك صبيانه ، ولاالمرأة نفسها ، وإن همس بموضع الآنية لما اشتد حصار البوليس ، وأحس بدنو الأجل . أخبر زوجته وحدها . أشرفت بنفسها ـــ بعد موته ـــ على هدم الجدار ، حتى ظهرت الآنية . صرفت الرجل الذى تولى الهدم ، وخلت إلى الآنية ، تعد مافيها ..

يمر الناس على قبره ، فلا يلتفتون إليه ، ولايترحمون عليه ، ولايقرءون عليه الفاتحة . صد الله عنه قلوب عباده ، لإسرافه فى أذاهم ..

قال سليمان عبد الواحد :

ظهر سلامة حسبو ـــ بعد شهر أو نحوه ـــ فى مدخل القرية . قال إن ولياً قد مات ، ودفن فى الجانب الشرقى من القرية . صدقه الناس ، فدفعوا لإقامة مقصورة

ومقام على قبره . حدد لهم سلامة حسبو يوم مولده ، فاحتفلوا به ، وظلوا على موعد الاحتفال ، إلى الأيام الحالية ..

إدعى صبيانه صلاحه وتقواه ، فلم يدفنوه كما أمر الشرع ، يبيد أثره بعد أوان معلوم عند ربه . أقاموا المقصورة والمقام . ألبسوه البطولات والمعجزات والخوارق . خلعوا عليه من الصفات والأفعال مايصعب على البشر إتيانه . أوتى مفاتيح العلوم كلها ، وعم مدده سائر الورود . لايعلن الناس مافى نفوسهم من عدم تصديق . يخشون الأذية ، أو يستكينون إلى تكرار الكذب . ربما كان ـــ بالفعل ـــ وليا ، له كرامات ..

إختلق صبيانه الأحداث والأفعال . نسبوها إليه ، وجنوا من تصديق الناس خيراً كثيراً . عزوا إليه من الكرامات والمكاشفات والخوارق ماحمل الناس على الإيمان به ، وتقديم الهدايا والنذور إليه ، وغالوا فى إقامة مولده ، وإن رأيت بعينى صبيه شحاتة عز الرجال ، وهو يفك حصره على جدار الضريح . يدرك كذب دعاوى الخوارق والمعجزات ..

زادوا ، فنسبوا إلى أنفسهم كرامات ومكاشفات ، ليحققوا التواصل ، يتحول الولى الفرد إلى طريقة ، تظل لهم المكانة التى صنعتها أكاذيبهم ، وإن تهامست أسئلة : ماذا كان صاحب الضريح فى زمانه ؟ هل كان ولياً بالفعل ؟ ..

مكاشفات الولى

قال الشيخ التهامى رزق :

بنى له مريدوه ضريحاً ، أقيم فوقه زاوية صغيرة ، صارت ـــ فيما بعد ـــ مسجداً . وأنشئت فوقه مئذنة وقبة ، وتبرع أهل الخير ، ففرشت بالسجاد والحصير ، وكسى ضريحه بآيات قرآنية ورسوم . .

ابتدعوا لمزاره موسماً وعيداً ، يقام كل عام . يفد إليه الناس عند إقامته من المدن والقرى البعيدة ، ينصبون الخيام بالقرب منه ، يقيمون أياماً تقصر أو تطول . وزاره ناس من المنصورة ، مدفوعين بالأحاديث عن كراماته ومكاشفاته ، يحملون الزاد والزواد ، ويوقدون الشموع ، ويقدمون النذور على العتبات ، فى المواسم ، وفى الأيام العادية . وأوقفت عائلة النخيلى على خدمته قطعة أرض ملاصقة للمقام ، وتبرع حامد الباز ، تاجر الموبيليا بالمنصورة ، بكسوة من الحرير الأحمر والديباج الأخضر ونقوش الذهب ..

روى سلامة حسبو أن فرج خليل زاره فى المنام ، وقال له :

ـــــ أحفر بالقرب من قبرى ، تجد ماء ..

لما حفر ، ظهر الماء . وانتفع به الناس ، وأقيم له مصلى ..

قال عم طلخاوى :

بلغ اعتقاد الناس به حد اليقين ، أنه يملك التصرف فى هيولى عالم الكون ، بإعانة نور معرفة الحضرة . يدفع الشر ، ويرد القدر ، ويمتلك الشفاعة فى الأولى والآخرة . وقيل إنه دفن فى قبره ، لكنه لم يمت . السيد البدوى جاب الأسرى ، وخاطب مريديه وأتباعه من وراء القبر . ذلك مافعله فرج خليل ، لاتخفى عليه خافية من أحوال السمارة ، وحياة أهلها . هو من المتصرفين فى قبورهم . من كانت له حاجة ، يقف أمام القبر . يذكرها ، فيقضيها له . ويقضى بما يرى أنه الصواب . يثيب المحسن ، ويعاقب المخطئ ، ويحمى الغلابة والمظلومين . ألف مريدوه وهم جلوس حول مقامه ، أن

جسمه يعظم حتى يملأ المكان . وكان يعلوه نور عظيم . يلبث دقائق ، ثم يختفى . وقيل إنه ترصد ـــ بهيئته ـــ للكثير من العصاة ، عند عودتهم إلى بيوتهم ليلاً ، فوبخهم على أفعالهم ، وروعهم . تاب على يديه لصوص ونشالون وهجامون وقطاع طرق وأبناء ليل . أصبحوا من جملة مريديه ..

روى أنه لما أمر مفتش الرى بقطع شجرة الجميز التى تظلل قبره ، تحولت الشجرة ـــ باقتراب الرجال منها ـــ إلى ثعبان ضخم ، يتلوى ، فلاذوا بالفرار ..

وروى أنه لما بدأت الفؤوس عملها ، لنقل فرج خليل من القبر الذى دفن فيه ، إلى مقابر السمارة ، سمع الجميع صوتاً يقول من داخل القبر :

ـــ أتخرجون رجلاً يقول ربى الله ؟!

فتوقفت الأيدى . ورفض الرجال أن يستكملوا مابدءوا..

قال بشير النحاس :

كنت مع شيخى لحظة وفاته . أخذت خاتمه من أصبعه ، ولبسته . أزمعت أن أواصل سيرته . ألهج بذكر المحبوب ، وأستغرق وقتى بالعبادات والأوراد والدعاء والصيام والصلاة ونوافل الطاعات . لا أقوم بذاتى ، إنما قيامى بالله ، فأنا أتحرك ، وأنطق عنه ، وأنظر بنوره ..

أما لماذا اقترنت بهية الحلوانى من سلامة حسبو ، فلأنه قال لها ، وهو يرحب بدخول سلامة حسبو عليه :

ـــ أعدى لزوجك عشاءه ..

همست بالحيرة :

ـــ لكنك تناولت عشاءك ..

وهو يعتدل فى فراشه :

ـــ أعدى العشاء لسلامة ..

قالت فى حيرتها :

ـــ أنت قلت لزوجك ..

حدجها بنظرة آمرة :

ـــ سيتزوجك سلامة حسبو بعد موتى ..

فكان الأمر كما قال فرج خليل ..

قال شحاتة عز الرجال :

ساعدت الملائكة من بنوا الضريح

لما أمر مفتش الرى بأن يزال ضريح الشيخ فرج خليل ، توقفت الفؤوس فى الأيدى ..

ولما أراد عمال الرى قطع الجميزة الهائلة ، المجاورة ، علا صراخها . صراخ آدمى ، فزع ، ملتاع . وتدفق الدم من جزعها المقطوع ..

تفرعت الجميزة ، وشمل ظلها الكوخ والقبر والمقصورة ، وكثرت ثمارها ، وطرحت من البركة مالم يتصوره أحد ..

نعلم أن فرج خليل حى فى قبره . يأكل ، ويشرب ، ويصوم ، ويطير إلى الحج فى مكة ، وتعرض عليه شكاوى الناس ، فيقضى فيها ببالغ حكمته . ومع أنى صحوت على ماحدث ، فلست أدرى إن كان ذلك فى صحو أو منام .

طلبت من سيدى فرج أن يصحبنى إلى حيث يذهب . حملنى بين يديه كريشة . طار بى إلى السموات العلا . إجتاز سماء إلى سماء . طالعنى بمعارض الجنة والنار ، ومافيهما من طوائف ونعيم وعذاب وعبر يستعصى على الذهن تذكرها ، وعلى اللسان رواية مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ..

قال بشير النحاس :

أفعى هائلة الحجم ، لزمت ثقباً بالقرب من مقامه ، لاتغادره إلاّ إذا أحست باعتزام أحد زوارالضريح الإساءة للولى الصالح ، فهى تغادر موضعها ، تنفث السم فى وجه الرجل ، فيموت حالا ..

وألم بالبلاد صقيع ، أتلف المزرعات ، فيما عدا السمارة . ظلت مزروعاتها على حالها ، لم يمسها تلف ..

وحين غمر الفيضان مزروعات السمارة ، رآه الناس يخرج من قبره ، ويمضى إلى البوهية . غطس فيها ، فظل

الماء يتناقص ، حتى ساوى حافة الترعة . لم يظهر فرج خليل ، فعرف الناس أنه قد عاد إلى قبره ..

بركات ولى الله سيدى فرج خليل ، تحمى السمارة من كل بلاء ..

قال صبحى طعيمة :

أقيمت حول الضريح بنايات ، تبركاً وتيمناً بالمجاورة . روى غالبية المترددين على ضريحه ، أن هاتفاً خاطبهم فى المنام : من أراد المدد ، فليزر فرج خليل . قصده الناس من المدن البعيدة ، والقريبة ، ومن القرى . خلق يبلغون الآلاف ، ينفقون النذور والأموال ، يوقدون الشموع والقناديل ، يقبلون الأعتاب ، يضعون أيديهم على المقام ، يتبركون بلمس الكسوة ، يتواجدون ، ويتصايحون ، ويمرغون وجوههم على شباكه ، يغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ، يضعونه فى جيوبهم ، يطلبون الشفاعة والبرء والنصفة والمدد . إذا تحقق ماطلبوه ، عادوا إلى الضريح بالزغاريد

والدعوات والنذور . صار المكان مزدحما ، فنقلت القهوة بالقرب منه ..

قال عوض عبد العال :

غابت حقيقة ذلك الثاوى فى قبره ، على الحدود بين الدقهلية والشرقية : أهو بالفعل صاحب خطوة وكرامات ؟.. قيل إنه لم يفعل شيئاً مما نسبه الناس إليه ، لكنه سكت عن التأييد والنفى . ترك التصورات تسرح بلا مدى . يضيفون ، ويحذفون ، ويختلقون الحكايات من أساسها ..

أقام مريدوه على قبره مقصورة ومقاماً . أقاموا حوله سوراً له باب . زرعوا فى فنائه الورد والريحان والصبار . رتبوا المداحين وأرباب الأشاير والمنشدين بذكر كراماته ومكاشفاته . سلطوا الضوء على الضريح . يعبقون الجو بالبخور ، يدفعون بالخرق الخضراء ـــ من ستر الضريح ـــ إلى النسوة اللائى يتبركن بها ، يتصورون شفاءها للعلة والعقم ، وتحقيقها لرضاء الزوج . وكان الشيخ زهير ـــ خادم المقام ـــ يتلقى ليلة الجمعة أجزاء من متعلقات

المرضى ، يقدمها إليه ذووهم مشفوعة بمبالغ كبيرة أو صغيرة . يضع المتعلقات فوق الضريح حتى تنتهى صلاة الجمعة ، يعيدها إلى أصحابها ليلبسها المرضى ، ويأتى الشفاء بإذن الله ، وببركة صاحب المقام ..

رويت حكايات عن سطوع ضوء ، فى بعض الليالى المعتمة ، على مقربة من الضريح . يتضوع البخور . تتشكل أبخرة ، وتتداخل أنوار ووجوه وتكوينات . يخرج رجل يرتدى ثياباً بيضاء فى بيضاء . يتمشى أمام الضريح . يـــتأمل المكان . يطرد مالا يراه أحد ، ويهتف : انصرف ياشيطان ! ..

ثم يعود إلى القبر ..

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

عرفت ـــ فى عملى بالعديد من المراكز والقرى ـــ أن القبة التى لابد أن يكون تحتها شيخ ، ربما كانت غير ذلك . لاتكاد تخلو مدينة أو قرية ـــ مهما تضاءلت مساحتها ، أو قل سكانها ـــ من ضريح ولى يؤمه الناس .

يدفعون له النذور ، يحتفلون بذكرى مولده ، يقيمون الأذكار أمامه وحوله . فى عزبة البرنسيسة ، التابعة لمديرية المنيا ، تهاوى ـــ بتأثير القدم ـــ ضريح ولى فى طرف المدينة . قلبنا فى موضع الضريح ، فلم نعثر على شئ . آلاف الأضرحة فى بلادنا بلا ولى ، أو أن صاحب المقام بلا ولاية ..

يغيظنى أن أهل السمارة لا يشغلون أنفسهم بحقيقة ذلك الشيخ المدفون فى الضريح ، ولاعن الحياة التى انتهت بالقرب من شجرة جميز تفصل بين محافظتين . لم يمض على وفاته أعوام قليلة ، فمعظم أهل القرية سمعوا عنه ، أو شاهدوه ، أو خالطوه ..

نسب إليه صبيانه ـــ بعد وفاته ـــ أنه تكلم وهو ميت . صلى على نفسه وهو يغسّل ، وهم يصلون عليه ، وهم يغيبونه فى قبره ..

روج صبيانه أن فضيلته الأولى ، كرامته التى استحق بها الولاية ، هى انتصاره على عساكر الإنجليز ، وعساكر الحكومة . ولم يكن ذلك صحيحاً . ظل ابن شفيقة ـــ إلى يوم مماته ـــ يتحاشى الدخول فى معركة مع السلطة .

قصر أذاه على الأهالى . يسرق أموالهم ، يدمر مزروعاتهم ، يسمم بهائمهم ، يفرض عليهم الإتاوات ..

اجتمع على قبره كثير من أبناء السمارة ، والقرى المجاورة . بمرور الأعوام ، أتى أبناء القرى البعيدة أيضاً . إدعوا فيه الولاية . أقبلوا من كل الجهات ، واختلط النساء بالرجال ، وحدث فساد وإفساد . صار تدخل البوليس ضرورة لازمة ..

قال صبحى طعيمة :

لأن زواجها من سلامة حسبو وصية فرج خليل ، لم ترفض بهية الحلوانى ولا تذمرت . اعتبرته أمراً يجب تنفيذه . لم ترفض لزوجها الراحل أمراً فى حياته ، فهل تفعل ذلك ، وهى تعانى الحنين إلى أيامه ؟..

لارجل فى قوة فرج خليل ولا ذكائه ولا وسامته ، لكن زواجها من سلامة حسبو وصية فرج خليل وإرادته ..

أذهله رفضها لحضنه . لم تعلن الرفض . بدا من همودها بين ذراعيه . لا تستجيب ولا تنفعل ولا تقاوم . تتجلد لمعابثاته وحضنه . تكتم قرفها وخوفها . لم تتصور أن رجلاً ــ بعد فرج خليل ــ يقاسمها السرير ..

قال آدم وزة :

استولى سلامة حسبو على جسمها وأموالها ، وما خلفه لها فرج خليل . لما همست بالسؤال ، فاجأها بصفعة أذهلتها:

ــ ربما كان الوضع مختلفاً أيام المرحوم .. أما الآن ، فالكلمة لى ..

تذكرت أيام تضاؤله أمام فرج خليل ، وتصعبت . يتحدث عن وفائه لذكرى الراحل ، ويبول على قبره . استبدل عصا من الأبنوس ، موشاة الرأس العاجى بالذهب ، بفرع شجرة الجميز الذى اعتاد حمله بعد وفاة ابن شفيقة ..

قذف بلفة ثيابها من نافذة البيت ، ثم جرها من السلالم إلى الباب الخارجى ، وأغلقه خلفها . وكان ثمة نسوة ـــ بثيابهن السود ـــ على عتبات البيوت ، يكنسن ، ويطعمن

الطير ، وينقين الأرز ، ويفلين شعور البنات ، ويخضن فى أحاديث لاتنتهى ..

طرقت الباب ، تريد العودة إلى بيتها . لوى شعرها الطويل على يده . سحبها على الأرض . إنهال ببوز حذائه على جسمها الذى انكشف ..

تابعنا ماحدث . لم نقو ــــ أمام الأعصاب المنفلتة ــــ على الاعتراض ، أوالتدخل . كان يحمل فى يده عصاه الأبنوسية ، وعوج طرف اللبدة على حاجبه ..

قال عوض عبد العال :

قيل إن بهية الحلوانى تركت القرية ، فلم تعد إليها . لم يعد يراها أحد . قيل إنها عادت إلى الخدمة فى البيوت . عملت ــ بالتحديد ــ فى قصر أبو سحلى عضو مجلس النواب . تذكر لفرج خليل موقفه حين أصر أن يسلم له نفسه . ثبت موقفه بين مرشحى الأحزاب الأخرى . قيل إن بهية الحلوانى ذابت فى الموالد ، تبحث عما لا تقوله ، ولا يعرفه

أحد . غازية ، أو صاحبة نصبة شاى ، أو مجذوبة . حتى خلاء ، لا أحد يدرى مصيره ، ولا ماذا جرى له ..

قال عم طلخاوى :

شاهدها رجال من السمارة على أضرحة الأولياء فى موالد دسوق وطنطا والإسكندرية والأقصر . الدفوف والصاجات والحناجر المنشدة والمبتهلة والذاكرة . أنكرت معرفتهم ، أو انها لم تعرفهم بالفعل . كانت ذائبة فى الابتهالات والدعوات والمدد . وقيل إنه أصابها مس من الدروشة ..

قال صبحى طعيمة :

لم يكن سلامة حسبو فى ذكاء فرج خليل ولاجرأته ولافتوته . قبض عليه عند رأس الجسر ، واقتيد إلى مديرية الأمن بالمنصورة . دس عليه البوليس قطعة أفيون . أمضى لها ثلاث سنوات فى سجن المنصورة العمومى . عاد إلى

السمارة ، ففاجأه غياب صبيانه . قبلوا معلمته لهم بالقهر ، وإن ظل لفرج خليل ــــ فى نفوسهم ــــ المكانة الأقوى . رأيته بين الجالسين فى قهوة صبحى طعيمة ، ناس من السمارة وقرى الدقهلية ، شكلوا زحاماً داخل القهوة وخارجها ، والراوى يتحدث عن أبو زيد والزناتى وعلى الزيبق وعنترة وأدهم ..

قيل إن الموت فاجأه وهو بمفرده فى الدار . عصته الاستغاثة ، فظلت عيناه مفتوحتين ، وفمه فى هيئة الذى يصرخ . لم ينتبه أحد إلى موته إلاّ بعد أن فاحت الرائحة من الباب المغلق ..

تبدلت الفصول ، وحصدت مزروعات ، واخضرت مزروعات ، وجاء الفيضان ، وانحسر ، واحتجز السد العالى مياه الفيضان لأعوام الجدب ، وردمت قنوات ، وجرفت أراضى زراعية ، ومهدت طرق ، وشقت طرق أخرى ، وأقيم جسر جديد ، وشيدت بنايات من الأسمنت المسلح ، وقلّت المصاطب ، ودخلت الكهرباء والمياه النقية ، واختفت حنفية المياه العمومية والملايات ، وتلاشى دخان أفران البيوت عندما افتتح صبحى طعيمة فرناً يطل على داير الناحية ، ولم تقتصر الثلاجة والبوتاجاز والغسالة على دار العمدة ، وانتشر الراديو الترانزستور ، وعلت هوائيات التليفزيون ، واستغنى عن المحراث اليدوى والشادوف والطنبور . حلت المعدات الكهربائية بدلاً منها ، وشهدت السمارة حالات زواج وطلاق ، وارتفع فى جنبات بيوتها صراخ المواليد الجدد ، وصوتت النساء فى جنازات الراحلين ، وماتت أم مشالى ، وعانى الدايات ـــ بعدها ـــ ذهاب الحوامل إلى الوحدة المجمعة ، وحلت المدرسة الابتدائية إلى جانب الكتّاب ، وتوقفت باصات نقل الركاب على مدخل

السمارة من ناحية الطريق السريع ، وسافر الشبان إلى الجامعة والجندية والوظيفة ، وركبوا الطائرة إلى خارج البلاد ، وسافرت أسر إلى المدن ، وارتدى الجينز قلة من البنات فى الذهاب إلى المدينة ، بينما التزمت الغالبية بنصائح الأهل ، فارتدين الحجاب فور أن جاءهن خراط البنات ، وغابت أيام سلامة حسبو ، لم يعد يذكرها أحد . واستعاد الشيوخ ذكريات الأعوام البعيدة . الولد يتحدى صاحبه : يعنى عامل ابن شفيقة ، والشبان الذين لم يشهدوا الأحداث بأنفسهم ، يروون تحذيرات الجدات : ناموا أحسن يجيلكوا ابن شفيقة ، واحتفل أبناء القرية ـــ والقرى المجاورة ـــ فى موعد يعرفونه ـــ بمولد العارف بالله فرج خليل ..

لكل قرية وليها ، وفرج خليل هو ولى قرية السمارة . له ضريح ومقام وخليفة وتلامذة ومريدون ، يؤمنون بكراماته ، ويذكرون الله تعالى ..

مولد فرج خليل هو المظهر الدينى للسمارة . موسم الرواج لباعتها ، وتجارها ، وقهوة صبحى طعيمة التى تتحول ـــ بقدرة قادر ـــ إلى لوكاندة ، أسرّتها الترابيزات والبطاطين ، إشتراها صبحى طعيمة فى

تصفيات معسكرات الإنجليز بالقناة ، ويجرى موسى عبد الشكور الحلاق ، العشرات من عمليات الختان ، فى كشك يحرص أن يكون قريباً من الضريح . يفد الأفراد والجماعات ، فلا يقتصر الاحتفال على الرجال وحدهم . وجوه مألوفة وطارئة ، تغمرها النشوة والوجد والحنين . تصل أيام المولد إلى أربعة أيام . تختتم بالليلة الكبيرة . تتزايد أعداد الوافدين والمقيمين ، وتعلو الأهازيج ، وينشط الذكر ، وترد الأنوار الإلهية ..